صور من تأذي الرسول

في القرآن

الدكتور:عثمان قدري مكانسي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على إمام المرسلين ، وسيد الخلق أجمعين.. سيدنا محمد الأمين، أدى الرسالة ، وبلّغ الأمانة ونصح الأمة وكشف الغمة .. نشهد بذلك ونسأل الله أن يحشرنا تحت لوائه ويسقينا من حوضه، إنه سميع مجيب.

إنه لمن الفضل الله تعالى عليّ أن الأخ الكريم الدكتور –طلالاً الدرويش– من لبنان يدرس معي اللغة العربية في ثانوية دبي، في الإمارات العربية المتحدة اقترح أن يكتب كل منّا موضوعا يفيد المسلمين، ويكون ذخرا له يوم القيامة.

كان اقتراحه مثار اهتمامي .. لكنْ ماذا أكتب، وأيَّ موضوع اختار؟.. وحين آذن الله تعالى بالأمر جاءت الفكرة دون عناء.. فقد قصدتُ المسجد الذي أصلي فيه منذ وطئت قدماي أرضَ الإمارات منذ ثلاثة عشر عاماً.

مسجد عمر بن الخطاب في الشارقة فإمامه الشيخ أحمد نصر حفظه الله، أكرمه الله بحفظ القرآن الكريم فآياته تجري على لسانه كما يجري المَعينُ العذب البارد متحدراً يدغدغ المشاعر ويشنف الآذان بأعذب الألحان وأفصح الألفاظ.. يحرص على تسلسل القراءة فيبدأ بسورة البقرة.. وينتهي في بضعة أشهر بسورة الناس.

وفي أواخر الشهر الماضي أكتوبر، تشرين الأول من عام خمسةٍ وتسعينَ وتسعِ مائةٍ وألف للميلاد كان يقرأ من سورة التوبة الآيات 56– 66.

(وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ) [(1)].

(وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيِقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُم) [(2)].

[(1)] سورة التوبة: الآية 58.

[(2)] سورة التوبة: الآية 61.

ومن عادتي منذ أكثر من أربعين سنة أنني أقرأ كل يوم جزءاً من القرآن الكريم، فقرَّ رأيي أن أقرأ في الشهر التالي نوفمبر، تشرين الثاني الجزء المقرر كل يوم، وأعيِّنُ الآيات التي يَرِدُ فيها إيذاء المشركين واليهودِ وضعافِ الإيمانِ من المسلمين للنبي صلى الله عليه وسلم ، ثم أعود إلى التفاسير أجمع منها صوراً توضح ما أصاب النبي صلى الله عليه وسلم من إرهاق وإيذاء وعنَت صبَّه هؤلاء على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، فكان القدوةَ في تحمُّل الأذى والتصرف حياله، واللجوءِ أولاً وأخيراً إلى الله تعالى فهو مانع رسول الله وهو عاصمه..

وهكذا كان.

وأنا إذ أقدم هذا الكتاب إلى الإخوة الأحباب أنبّه إلى أنني استعنت بعدة تفاسير على رأسها تفسير القرطبي "الجامع لأحكام القرآن"، و" في ظلال القرآن " للشهيد سيد قطب، وأذكر أنني نقلت صفحاتٍ من تفسير سيد قطب ونوَّهتُ إلى ذلك.. فليس المهم أن تكون الكتابة بأسلوبي– وستجده إن شاء الله أسلوبا أدبيا– أو هكذا أظن.. لكنَّ الأهم أن تصل الفكرة إليك مصوِّرة تصويراً واضحاً ما عرَض للرسول الكريم، فتكونَ نبراسا يقودك إلى التأسي به والسير على خطواته.. فهو سيدنا وقائدنا.

من التزم منهجه رشد، ومن اهتدى بهديه هُدِيَ إلى صراطٍ مستقيم.

والله من وراء القصد.

عثمان قدري مكانسي

1995 / 12/ 1

طريقة العرض

1 - أكتب الآيات التي أبغي تناولها في رأس الموضوع.

2- القضايا المكررة أمثال التكذيب والافتراء والاستهزاء، والسحر تناولتها موضوعاً خاصاً لا علاقة له بحادثة معينة.

3- الحادثة الخاصة التي تتكرر في موضوعها مرةً أو مرتين تناولتها مرة واحدة، ونوهت إلى مكانها كحفظ الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم في سورة المائدة، وسورة يس.

عثمان قدري مكانسي

سورة البقرة(1)

[الآيات 104- 108]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (104) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (105) مَا نَنْسَخْ مِنْ آَيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (106) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (107) أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ(108).

تذكر الروايات أن السبب في نهي الله تعالى المؤمنين أن يقولوا للنبي صلى الله عليه وسلم "راعنا"، أن اليهود كانوا يُميلون ألسنتهم في نطق هذا اللفظ وهم يوجهونه للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم حتى يؤدي معنى آخر مشتقاً من الرعونة والطيش، فقد كانوا يخشون أن يشتموا النبي صلى الله عليه وسلم مواجهة فيحتالون في سبه- صلوات الله عليه وسلامه- عن هذا الطريق الملتوي الذي لا يسلكه إلاّ صغار السفهاء، ومن ثم جاء النهيُ للمؤمنين عن اللفظ الذي يتخذه اليهودُ ذريعة، وأمروا أن يستبدلوا به مرادفه في المعنى" انظرنا"، الذي لا يملك السفهاء تحريفه وإمالته فيفوّتون على اليهود غرضهم الدنيء، الذي يدل على مدى غيظهم وحقدهم ويشي بسوء أدبهم وخِسّة وسيلتهم وانحطاط سلوكهم.

والنهيُ الوارد بهذه المناسبة يوحي برعاية الله تعالى لنبيه وللجماعة المسلمة ودفاعه- سبحانه- عن أوليائه من كل كيد وقصدٍ شرّير من أعدائهم الماكرين، فقد اختص الله تعالى المسلمين بفضل عظيم هو الإيمان به والعمل في سبيله ونشر شريعته فامتلأتْ صدورُ اليهود بالحقد عليهم والعداء لهم، فليحذروا أعداءهم وليتمسكوا بما يحسدهم عليه هؤلاء الأعداء من الإيمان وليشكروا فضل الله عليهم ويحفظوه.

ويجمع القرآنُ بين أهل الكتاب والمشركين في الكفر، وكلاهما كافر بالرسالة الأخيرة، فهما على قَدَمٍ سواء من هذه الناحية، وكلاهُما يُضمر للمؤمنين الحقد والضغينة ولا يود لهم الخير، وأعظم ما يكرهونه للمؤمنين هو هذا الدين وأن يختارهم الله لهذا الخير، وينزل عليهم هذا القرآن، ويَحْبُوهم بهذه النعمة، ويعهد إليهم بأمانة العقيدة في الأرض، وهي الأمانة الكبرى في الوجود، ونرى اليهود لخبثهم ودهائهم يشكِّكون برسالة محمد عليه الصلاة والسلام، ويشكِّكون بقبول الله تعالى لصلاتهم وعبادتهم قائلين: هذا نبيكم فرض عليكم الصلاة إلى المسجد الأقصى سنةً ونصف السنة أو أكثر ثم رأى أن تتجهوا إلى مكة حيث البيت الحرام، فلعل صلاتكم السابقة إلى القدس غيرُ مقبولة. وقد رأى محمدٌ – متردداً– أن يحصرها أخيراً في المسجد الحرام فها أنتم معشر المسلمين ضيّعتم زمناً من عمركم في صلاتكم إلى المسجد الأقصى.

ويبدو أن هذه الحملة الخبيثة آتتْ ثمرتها الكريهة في نفوس بعض المسلمين، فأخذوا يسالون رسول الله صلى الله عليه وسلم في قلق وزعزعة، ويطلبون الأدلة والبراهين، الأمر الذي لا يتفق مع الطمأنينة المطلقة إلى القيادة، والثقة المطلقة

بمصدر العقيدة، فنزل القرآن يبين لهم أن نسخ بعض الأوامر والآيات يتبع حكمة الله الذي يختار الأحسن لعباده، ويعلم ما يصح لهم في كل موقف، ويبين لهم أن هدف المرجفين من اليهود ردّهم عن دينهم إن استطاعوا .

ويحرك الله تعالى نفوس المؤمنين وقلوبهم للاتجاه في الطريق الصحيح الذي يُرضي الله تعالى وهو الإذعان لأوامر الله وعدم إزعاج رسوله الكريم بكثرة الأسئلة التي اتسم اليهود بالإكثار منها لرسول الله موسى : "أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل " ؟

فهو استنكارٌ لتشبّه بعض المؤمنين بقوم مرسى في تعنتهم، وطلبهم للبراهين والخوارق، وإعناتِهم لرسولهم كلما أمرهم بأمر أو كلفهم بتكليف، على نحو ما حكى القرآن عنهم في مواقفَ كثيرة.

فكثرةُ القيل والقال والإلحافُ بالسؤال يبدل الإيمان كفراً وهو الضلال البعيد "ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل ". وما أشده من تحذيرٍ، وما أسوأ الضلال من نهاية، هده النهاية التي صار إلها بنو إسرائيل، نسال الله تعالى الهدى والعافية

سورة البقرة(2)

[الآيات 146- 147]

(الَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (146) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (147)

معرفة الناس بأبنائهم هي قمة المعرفة، وهي مثل يُضرب في لغة العرب على اليقين الذي لا شبهة فيه .

وروي أن عمرَ رضي الله عنه قال لعبد الله بن سلام : أتعرف محمداً صلى الله عليه وسلم كما تعرف ابنك؟ قال: نعم، وأكثر .

بعث الله أمينه في سمائه إلى أمينه في أرضه بنَعْته، فعرفته ، وابني لا أدري ما كان من أمه.

فإذا كان أهل الكتاب على يقين من الحق الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم فلم يكذبونه؟! ولم يكتمون الحق الذي جاء به

وهم يعلمون صِدقه وصدق ما جاء به، فلئن أمرهم أن يجعلوا قبلتهم الأولى القدسَ لقد صدق فيما أمره به ربُّه ولئن أعادهم إلى القِبلة الثانية لقد صدق فيما أمره به ربه، بقي على المسلمين أن يعرفوا الحكمة من ذلك : (وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ) [1] .

فالتوجه إلى القبلة الأولى- المسجد الأقصى- كان اختباراً لإيمان المسلمين من العرب! الذين لا يرضَون عن المسجد الحرام بديلاً إلاّ إذا أخلصوا دينهم لله، فإنْ فعلوا ذلك نجحوا في الاختبار وصاروا أهلاً لحمل دينه ونشره في بقاع الأرض، واللهُ تعالى يعرف إخلاصهم قبل أن يختبرهم فهو يعلم السر وأخفى، ولكنه تعالى يريد أن يظهر المكنون من الناس حتى يحاسبهم

---

[1] سورة البقرة : الآية 143.

عليه ويأخذهم به . فهو – لرحمته بهم– لا يحاسبهم على ما يعلمه من أمرهم بلْ على ما يصدر منهم بالفعل.

ولن يستطع الانسلاخ من الرواسب الشعورية إلاّ المخلصُ في عبوديته لله، المنصهر في دعوته.. وقد نجح المسلمون في هذا الاختبار فأعيدوا إلى قبلتهم الأولى ليس لأنها الأولى، إنما لأنها الرمز الجديد والقبلة الجديدة لهذا الدين العظيم.

إذاً فالحق من الله . والمؤمن لا يمتري ولا يجادل فيما يأمره الله به، والنهي عن الامتراء للمؤمنين يدنيهم من الرضا والسكينة، وقد خوطبوا في شخص نبيهم العظيم، وحاشا لرسول الله أن يمتري أو يشك يوماً، فحين قال له ربه في آية أخرى :

(فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (94) [1] .

قال لا أشك ولا أسأل.

فلا ينبغي لمسلم أن يتأثر بأباطيل اليهود وأحابيلهم وليس له أن يأخذ من هؤلاء الذين يستيقنون الحق، ثم يكتمونه شيئاً من أمر دينهم الذي يأتيهم به الصادق الأمين.

إنّ اليهود خاصة وأهل الكتاب عامة يدسّون السموم في دراستهم لقرآننا وسيرة نبينا وشريعة ديننا.

فكيف نتلقى عنهم تاريخنا الذي شوهوه، ونأمنهم على القول في تراثنا وسيرة أوائلنا، ونرسل إليهم طلابنا يدرسون على أيديهم علم الإسلام، ويتخرجون في جامعاتهم تم يعودون إلينا مدخولي العقل والضمير .

إنّ القرآن يحذرنا منهم ومن تخرصاتهم، ويصرفنا عن الاستماع إليهم والثقة بهم، فلنا طريقنا ولهم طريقهم .

---

(1) سورة يونس : الآية 94.

يقول سيد قطب رحمه الله في ظلال القرآن، المجلد الثاني، ص 1061 :

إنّ أهل الكتاب يعلمون جيداً الحقيقة في هذا الدين، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وهم –جيلاً بعد جيل– يدرسون هذا الدين دراسة عميقة، ويُنقِّبون عن أسرار قوته، وعن مداخله إلى النفوس ومساربه فيها، ويبحثون بجدٍ كيف يستطيعون أن يفسدوا القوةَ الموجِّهة في هذا الدين ؟ كيف يُلقونَ بالريب والشكوك في قلوب أهله ؟ كيف يحرِّفون الكلم فيه عن مواضعه؟ كيف يصدُّون أهله عن العلم الحقيقي به؟ كيف يحولونه من حركةٍ دافعةٍ ، تحطم الباطل والجاهلية، وتستردُّ سلطانَ الله في الأرض، وتطارد المعتدين على هذا السلطان، وتجعل الدين كله لله، إلى حركة ثقافية باردة، والى بحوث نظرية مّيتةٍ، وإلى جدل لاهوتي أو فقهي أو طائفي فارغ ؟ كيف يفرِّغون مفهوماته في أوضاع وأنظمة وتصورات غريبة عنه، مدمِّرة له، مع إيهام أهله أنَّ عقيدتهم محترمة مصونة؟

كيف، في النهاية، يملأون فراغ العقيدة بتصورات أخرى ومفهومات أخرى واهتمامات أخرى ليُجْهِزُوا على الجذورِ العاطفية الباقية في العقيدة الباهتة؟

إن أهل هذا الكتاب يدرسون هذا الدين دراسة جادة عميقة فاحصة، ليس لأنهم يبحثون عن الحقيقة، كما يتوهم السُذَّجُ من أهل الدين! ولا ليُنْصِفُوا هذا الدين وأهلَه، كما يتصور بعضُ المخدوعين حين يرون اعترافاً من باحث أو مستشرق بجانبٍ طيب من هذا الدين: كلا! إنما هم يقومون بهذه الدراسة الجادة العميقة الفاحصة لأنهم يبحثون عن مقتلٍ لهذا الدين ! لانهم يبحثون عن منافذه ومساربه إلى الفطرة ليسدُّوها، أو يُميعوها! لأنهم يبحثون عن أسرار قوته ليقاوموه منها !! لأنهم يريدون أن يعرفوا كيف يبني نفسه في النفوس ليبنوا على غراره التصورات المضادة التي يريدون ملء فراغ الناس بها !

وهم من أجل هذه الأهداف والملابسات كلها يعرفونه كما يعرفون أبناءهم!

ومن واجبنا نحن أن نعرف ذلك .. وأدن نعرف معه أننا نحن الأوْلى بأن نعرف ديننا كما نعرف أبناءنا!!

سورة البقرة(3)

[الآيات 217– 218]

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (217) إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (218).

- "حصاة يجعلُ منها أعداءُ الله قُبّةٌ ".

– "وقَشّةٌ – على ظنهم – قَصَمَتْ ظَهْرَ البَعيرِ ".

أوليس الذي فعل هذا بعضُ المسلمين على حسن نيّةٍ؟! فليضعها المشركون تحت المجهر وليكبروها ما شاء لهم أن يكبروا، وليجعلوها سَمَرَ الناس وأحاديثهم لينالوا من المسلمين ونبيهم.. وحين نزل القرآن ذهبت هذه الحملة الظالمة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أدراج الرياح، فالشمس حين تَسْطعُ تختفي الدياجير، والنور إذ ينبثق تأوي الخفافيش إلى جحورها.

هذا دأب الباطل يزهو منتفشاً فإذا ظهر الحق ذاب الباطل.. كأن شيئاً لم يكن.

.. وإليك القصة..

جاء في روايات متعددة أنّ سريةٌ لعبد الله بن جحش رضي الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعثه في ثمانية من المهاجرين، ليس فيهم أحد من الأنصار باتجاه مكة، ومعه كتاب مغلق، وكلّفَهُ أن لا يفتحه حتى يمضي ليلتين.. لماذا لا يفتح الكتاب إلاّ بعد ليلتين؟!.. تدريبٌ على الانضباط والجندية، فلما فتحه وجد فيه: إذا نظرتَ كتابي هذا فامض حتى تنزل ببطن نخلة، بين مكة والطائف، ترصد قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم ولا تُكرهَنَّ أحداً على المسير معك من أصحابك ".

فالرصد ومتابعة أخبار العدو يجعل الجيش المسلم أقربَ إلى تقدير الموقف الصحيح لقوة الأعداء ويبث الثقة في الجندي المسلم، كما أن الأمر لا يُؤتي أُكُلَه إلاّ إذا كان القائم عليه مختاراً له طائعاً من نفسه لايُكْرَهُ عليه، فالإنسان إذا أكرهَ على أمرٍ لم يحسنه، وتفلّت منه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

لما نظر عبد الله بن جحش في الكتاب قال: سمعاً وطاعة.. والمسلم إذا أتاه أمرٌ من الله ورسوله قال سمعتُ وأطعت، هذا هو الإيمان الحق، ولا يكون مسلماً إلا بهذا التسليم وهذه الطاعة، ثم قال لأصحابه قد أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أمضي إلى بطن نخلة أرصُد بها قريشاً حتى آتيه منها بخبر، وقد نهى أن أستكره أحداً منكم، فمن كان يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فانا ماضٍ لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

تخيير.. فالأمر يتطلب تحمل المسؤولية والشعور بعظمة تحمل التباعات، والجهادُ أمانة لا يحملها إلاّ القادر الراغب.. أما الذي يساق دون رغبة منه فلا يمكنه تحمَّل تلك المسؤولية.. ومع التخيير تحريك للعواطف وشحذ للهمم.

إنها– والله– للشهادة التي تطلبون، ولقاء الله الذي ترغبون، وإليه تسعون.. وقال الجميع: نحن لها فقد آتت هذه القيادة الحكيمة أُكُلَها.. لم يتخلف أحدٌ منهم.. حتى إذا كانت السرية ببطن نخلة مرَّت عيرٌ لقريش تحمل تجارة، فيها عمرو بن الحضرمي وثلاثة آخرون، فقتلت السرية عَمْراً بن الحضرمي، وأسرت اثنين، وفَرّ الرابع، وغنمت العير، وكانت تحسب أنها في اليوم الأخير من جمادى الآخرة، فإذا هي في اليوم الأول من رجب– الشهر الحرام– الذي تعظِّمه العرب وبقيةَ الأشهر الحرم، وقد عظمها الإسلام وأقرّ حرمتها.

فلما قدمت السرِيَّة بالعير والأسيرين على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام " فوقف العيرَ والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً، فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم سقط في أيدي القوم وظنوا أنهم هلكوا، وعنّفهم إخوانهم من المسلمين.

أما أبواق الكفر فإنها بدأت تعزف لحن التشهير برسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين.. قد استحل محمدٌ وأصحابُه الشهر الحرام.. سفكوا دماء الآمنين.. أسروا الرجال

المسالمين.. سلبوا الأموال.. فعلوا عكس ما ادّعوا من حرمة الأشهر الحرم.. إنهم يدْعون إلى السلام ويشنُّون الغارات..

أما اليهود فرقصت طرباً، وشهّرَتْ بالمسلمين، وتفاءلت بذلك على محمد صلى الله عليه وسلم فقالت: قتل الحضرميَّ عبد الله بن واقد: وقدت الحرب.

وعَمروٌ: عمرت الحرب- والحضرمي: حضرت الحرب.

وتسارعت الدعاية المضللة تُروِّج للحادثة في البيئة العربية، وتُظهر محمداً وأصحابَه بمظهر المعتدي الذي يدوس مقدسات العرب وينكر مقدساته هو عند ظهور المصلحة!! ونسي هؤلاء المشركون أنهم بدأوا المسلمين العداء، وفعلوا بالمسلمين الأفاعيل.. وصدق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم: " يرى أحدكم القذى في عين أخيه ولا يرى الجذع في عين نفسه ".

نسوا أنهم عذّبوا المسلمين، وآذَوهم، وقتلوا كثيراً ممن آمن منهم ! وألجأوهم إلى الهجرة، وحجزوا دورهم وأموالهم، ومنعوا الضعفاء من السفر، وأذاقوهم الهوان ألواناً.. نسوا أنهم كذَّبوا نبيهم، وألَّبُوا العرب عليه، ووصفوه بشتى الصفات القبيحة .. شانهم شأن أعداء الله في كل مكان وكل زمان، فهم نسخة تتكرر على مر العصور ،وكَرِّ الدهور، لا يَرْعَوْنَ إلّاً ولا ذمة.

ونزلت الآية الكريمة تشد أَزْرَ المسلمين وتُقرِّر أن القتال في الشهر الحرام كبيرة، نعم! لا شك في ذلك.. لكنَّ صدَّ المشركين المسلمين عن البيت الحرام ،والصدُّ عن سبيل الله والكفرُ به وإخراجُ المسلمين من مكة.. أكبرُ عند الله، وما فعله المشركون فتنة كله.. والفتنة أشد من القتل.

إن المشركين بغاة، انتهكوا المقدسات، واعتدوا على حرمات الله، وآذَوا أولياءه فهم المعتدون ابتداءً، وكان على المسلمين قتالهم، أنَّى ثقفوهم.

وكان على المسلمين ألا يَدَعوهم يحتمون بستار زائف من الحُرمات التي لا احترام لها في نفوسهم ولا قداسة!!.

لقد كانت كلمة المشركين التي شددت النكير على المسلمين في قتل الحضرمي وأَسْرِ رفيقه كلمةَ حقٍ أُريد بها باطل- وكان التلويحُ بحرمة الشهر الحرام مجردَ ستارٍ يحتمون خلفه لتشويه موقف الجماعة المسلمة، وإظهارها بمظهر المعتدي.

"إن التاريخ يعيد نفسه فاليوم يشن أعداء الإسلام حملة شعواء على الملتزمين بدينهم، الداعين إلى تحكيم شرع ربهم، المنافحين عن عقيدتهم، الباذلين دماءهم وأموالَهم وراحتهم لدين الله، ويَصِمِوُنهم بأقذعِ الكلمات، ويَصفونهم بأسوأ الصفات، ويتناسون أنهم هم قد انحرفوا عن دين الله، وباعوا أنفسهم للشيطان والمشركين من أهل الكتاب.

والقرآن يقرر أن أعداء الله، مجتمعين، مصممون على قتال المسلمين، وإيذائهم، ليردُّوهم عن دينهم.. إن استطاعوا.. ولكن هيهات أن يعود من ذاق حلاوة الإيمان، وامتزج بنور اليقين، وعرف سعادة التقوى، هيهات أن يعود المبصرُ أعمى، والسميعُ أصمَّ، والسليمُ سقيماً، فلن تستطيع قوة الأرض مجتمعة أن تنال من عقيدة المؤمن أو تزحزحه عنها.

أما ضعاف الإيمان والمتعلقون بأوهام الدنيا، وأوضار المادة، إن سقطوا في حمأة الكفر، فإن مصيرهم نارٌ تلظى لا يصلاها إلَّا الأشقى.

إن المؤمنين الذين هجروا الدنيا وملذاتها، وتشوقوا للجنة ونعيمها، وجاهدوا في الله حق جهاده يضعون نصب أعينهم رضا الله ورحمته، فيسلِّمون أمرهم إليه، ويتوكلون عليه، وهو الرحيم بهم، الغفور لسيئاتهم، البَرُّ بهم.. وما أعظمَ أن يلجأَ الإنسان في مسيرته إلى الله.. أن يلجأ .. إلى الله..

ولم يقصر عبد الله بن جحش، رضي الله عنه، في توبيخ أعداء الله فيرد عليهم رداً استقاه من القرآن الكريم فأدى وأحسن:

تعُدُّون قتلاً في الحرام عظيمةٌ

وأعظمُ منه لو يرى الرشدَ راشدُ

صدُودُكمُ عما يقول محمدٌ

وكفرٌ به، والله راءٍ وشاهدُ

وإخراجُكم من مسجدِ اللهِ أهلَهُ

لئلا يُرى لله في البيت ساجدُ

فإنَّا وإنْ عيرتمونا بقتله

وأرْجف بالإسلامِ باغٍ وحاسدُ

سقَيْنَا من ابن الحضرمي رماحنا

بنخلةَ لما أوقد الحربَ "واقد"

دماً وابنُ عبد الله عثمانُ بيننا

ينازعه غُلٌ من القِدِّ عاندُ [1]

***

---

[1] الأبيات من تفسير القرطبي، الجزء الثالث، الصفحة 46.

سورة آل عمران(1)

الآيات 23- 25

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (23) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (24) فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (25)

* * *

قال ابن عباس: نزلت الآية الأولى بسبب أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل بيتاً فيه جماعة من يهود، فدعاهم إلى الله، وهكذا يفعل الدعاة في كل مكان ينزلونه لأنهم هداة إلى الله يدفعون الناس إلى طاعته في الدنيا، وجنته في الآخرة،

فقال له أحدهم: على أي دين أنت يا محمد؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إنّي على ملة إبراهيم " فقال اليهودي مجادلاً: إن إبراهيم كان يهودياً..

ونسي أو تناسى أن دين اليهود على ملة موسى وشرع موسى، وبينه وبين إبراهيم عليهما السلام مئات القرون؟! إن هذا افتئات وادعاءٌ لا لبس فيه، علمه رسول الله فرمى الكرة في هدفهم إذ قال عليه الصلاة والسلام: "فهلموا إلى التوراة فهي بيننا وبينكم "، لكنهم لجهالتهم وسوء طويتهم- وأقصد الجالسين جميعاً- أبَوا أن يعودوا إلى التوراة.. ألا ترون الأمر عجيباً أنه- صلى الله عليه وسلم- لم يدْعُهم إلى القرآن ابتداءً، فهم كافرون به لا يحتكمون إليه، فاختصر رسول الله صلى الله عليه وسلم الموقف ودعاهم إلى توراتهم، ففيها أن إبراهيم لم يكن يهودياً، وأنهم يرون في التوراة صفة النبي صلى الله عليه وسلم.

لقد جادلوا حُبَّاً في الجدال، وأنكروا رغبة في الإنكار، لم يكن البحث عن الحقيقة رائدَهم ولا التماسُ الحق هدفَهم، فهم يعرفون الحق ولا يريدونه.

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ..) سؤال التعجيب والتشهير من الموقف المتناقض الغريب، موقفِ الذين أُوتوا الكتاب الذي أُنْزِلَ على موسى، وهو نصيب من الكتاب، باعتبار كتاب الله هو كل ما أنزل

على رُسُله، وقرَّر فيه وحدة ألوهيته وربوبيته، فهو كتابٌ واحد في حقيقته، أُوتِيَ اليهود نصيباً منه والنصارى نصيباً منه، وأوتي المسلمون الكتاب كله باعتبار القرآن جامعاً لأصول دين الله الواحد.

تعجبٌ من الذين لا يحتكمون إلى شريعتهم ويدّعون أنهم ينتمون إليها!! يُعرضون عنها بأفعالهم على الرغم من تخرصاتهم بأنهم يؤمنون بها.

وهنا لا بد لنا أن نتعجب أكثر من الذين يدَّعون الإسلام ثم يُخْرِجونَ شريعة الله من حياتهم ويَظلون يزعمون أنهم مسلمون.

فهذا المثل الذي ضربه الله في اليهود وتعجب منهم ووبخهم فيه، ينطبق تمام الانطباق على مسلمي القول، كافري الفعل، فالنورُ بل الضياء في كتابهم، وقرآنهم مَلَكَ القلوب وملأ الآفاق، فالعجبُ منهم أشدُّ من العجب من اليهود.

"وذلك بأنهم قالوا: لن تمسنا النار إلَّا.. ".

ويزداد العجب من يهود، أنهم يُصرُّون على عدم الاحتكام إلى شريعة موسى، وأن الله حين يعذبهم يكتفي أن يدخلهم النارَ أياماً معدودات ثم يعفو عنهم ويدخلهم جنته ونتساءل هنا:

1 - هل أخذوا عهداً من الله أن لا يعذبهم إلَّا أياماً قليلة أم إنه افتراء !!؟

2- وهل يصبر هؤلاء على عذاب هذه المدة، بل على ساعةٍ من عذابٍ بلهَ على لحظةٍ من عذاب النار؟! بلهَ على الاقتراب منها وهي تغلي وتفور، وتأكل مَن فيها وتقول: هل من مزيد؟ بل على النظر إليها دون أن يذوبوا كمداً وحسرةً ويحترقوا بشواظها قبل الوصول إليها؟!! كفرعجيب.

3- ولماذا لا يحتكمون إلى الله إن كانوا موقنين بعدله حقاً؟!!

4 - ولماذا ينحرفون أصلاً عن حقيقة الدين؟ وما يفعل ذلك إلا الذين ملكَتْهم شهواتُهم وأضاعوا عقلهم وعاشوا كالأنعام، بل كانوا أضل سبيلاً..

إنهم ما يقولون هذا إلا افتراءً وضلالاً، فهم غير جادين في إيمانهم، يدَّعونه.

والقولُ نفسه نقوله للمسلمين الذين يدَّعون الإسلام ويزعمون أنهم مسلمون.

" وغرّهم في دينهم ما كانوا يفترون..".

قاعدة عظيمة يسوقها القرآن الكريم: لا يجتمع في قلب واحد[الخوفُ من الآخرة والحياءُ من الله] ، و [الإعراضُ عن شرع الله والتبجحُ والوقاحة]، (فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (25) [1] وأعتقد أن هذا التهديد وإن كان يُقصد به هؤلاء المفترون الجاحدون إلا أنه تقريرٌ لحالهم وبيانٌ لنهايتهم، فهو سواء هُددوا أم لم يُهدّدوا لن يؤثر في مجرى حياتهم، فقد طُبِع على قلوبهم فهم لا يعقلون ولا يشعرون. وهو تهديد وتنبيه للعاقلين أن لا يزلوا في مستنقع تحكيم الشهوات وإيثار الهوى.

---

[1] سورة آل عمران: الآية 25.

سورة آل عمران(2)

[الآيات 59- 61]

المباهلة: الملاعنة، والاجتهاد في الدعاء :

(إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (59) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (60) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (61)

قد ينساق الإنسان وراء فكرة فتملك عليه لبه، وينافح عنها ويتخذها عقيدة.. وإلى هنا لا يوجد ضررٌ كبيرٌ من ذلك، إلَّا إذا كانت عقيدة، ينتج عنها مواقف تمسُّ الدين والمبدأ، وتخالف المألوف، وتعاكس المنطق والعقل.. إذ ذاك يجب توضيح الأمر، وبسط القول فيه، ليعود الإنسان

إلى صوابه، فإن توضح له الحق وعرف أنه كان على خطأ وجب عليه العودة إليه، والفَيْءُ إلى جادة الصواب، فإنْ فعل، عفا الله عمّا مضى وبدأت صفحة جديدة مضيئة تجُبُّ ما قبلها.. وانْ ركب الإنسان رأسه بعدما ظهر الحق، فهنا الطامة الكبرى.

فحين زار رفد نصارى نجران مدينةَ النبي صلى الله عليه وسلم، قابلوه عليه الصلاة والسلام، وحادثوه، وحين قال في حق عيسى عليه السلام: " إن عيسى عبد الله وكلمته، أنكروا عليه ذلك، فعيسى لا أب له، وهو بذلك، على حد زعمهم، ليس كالبشر وانْ خرج من بطن امرأة وما دام عيسى كلمةَ الله، فهو – حاشاه– ابنه، وحسبوا أنهم على حق وأنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم غَمَطَ أخاه عيسى حقه، فبدؤوه قائلين: أرنا عبداً خلق من غير أب؟!. . سبحان الله..

وهو القادر على كل شيء.. كان سؤالهم هذا محرجاً.. نعم محرجاً لهم، لا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد أجابهم بسؤال أشد وقعاً على نفوسهم من النبال.. قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: "آدم من كان أبوه؟ أعجبتم من عيسى لا أب له؟! فآدم ليس له أب ولا أم".

إنَّ على عقولهم القاصرة التي اعتقدت أن عيسى ابن الله لكونه لا أب له، أن يجعلوا من آدم عليه السلام إلهاً – والعياذ بالله– فلا أب له ولا أم.. ولم يهتدوا إلى أن الله إذا أراد شيئاً قال له كن، فيكون.

وذلك قوله تعالى: "ولا يأتونك بمثل– أي عيسى– إلا جئناك بالحق– أي آدم– وأحسن تفسيراً".

بُهِتَ القوم فما حاروا جواباً.. وأنَّى لدعاة الباطل أن ينطقوا إذا تجلى صوتُ الحق.. وهذه طريقة "الذكر الحكيم " في مخاطبة الفطرة بالمنطق الفطري البسيط في أعقد القضايا.. هكذا وبسرعة وبساطة تتجلى حقيقة عيسى وحقيقة آدم.. كيف ثار الجدل حول عيسى؟ وهو جَارٍ وفق السنةِ

الكبرى في يسرٍ ووضوحٍ؟! سنة الخلق والنشأة جميعاً؟!!

إنها النفخة الإلهية، والروح الإلهي، والأمر الإلهي لكلا النبيَّيْن سلام الله عليهما، فلا شبهات، ولا تلبيس، ولا ضلالات..

وحين دعاهم صلوات الله وسلامه عليه إلى الإسلام قالوا متبجحين: قد كنا قبلك مسلمين.. أيُّ صفاقة هذه؟ أليس في إنجيلكم صفة النبي صلى الله عليه وسلم وكنتم– كيهود– تنتظرونه لتؤمنوا به؟ ها هو قد جاء، وعرفه سيدكم وكبيركم – العاقب–.

فما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن جابههم مؤكداً ضلالهم:

" كذبتم، يمنعكم من الإسلام ثلاث:

١– قولكم اتخذَ اللهُ ولداً.

2– وأَكْلَكُمُ الخنزيرَ.

3– وسُجُودُكم للصليب".

ومن الافتراء على الله أن يولد له ولدٌ، وأن يقتله اليهود، وأن يرضى بما فعلوه دون أن يدافع عن ولده.. حاشاه فهو الواحد الأحد، الفرد الصمد.

وتعجبني هذه الأبياتُ :

عجباً للمسيحِ بينَ النصارى

والى اللهِ والداً نسبوهُ

أسْلَموه إلى اليهودِ وقالوا

إنَّهم بعد قَتْلِهِ صلبُوهُ

فإذا كانَ ما يقولون حقاً

فسلوهم وأين كان أبوهُ؟

فإذا كان راضياً بقضاهم

فاشكروهم لأجلِ ما صنعوهُ

وإذا كان ساخطاً بقضاهم

فاعبدوهم لأنَّهم غَلبُوهُ

وما زال الناس حتى يومنا هذا يجادلون في الخنزير، وهو بذاته مُنَفِّر للطبع القويم، وقد حرَّمه الله تعالى قبل أن يكشف العلم الحديث أن في دمه ولحمه وأمعائه دودة شديدة الخطورة (الدودة الشريطية)، وأنه يأكل القاذورات والفضلات الآدمية، وأنه ديوث، إن أراد مواقعةَ أُنْثَاهُ دَعَا كلَّ الخنازير إليها فإن فرغت منها أتاها.

وقد أثبت الطبُّ أن الإنسان يتأثر بلحم ما يأكله سلباً وإيجاباً.

وهذا الصليب يعلق على صدور النصارى ويُتبارك به وهو علم على كنائسهم وشعار لأعلامهم، وكأن الرائي يحسب أنهم فرحون بصلبه، وهو لم يصلب وسيكسر الصليب، ويُقاتل أهله، ويحكم بشريعة الإسلام آخر الزمان.

ولعلم الله تعالى أن النصارى مُجادلون مُمارون، طلب إلى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتجنب المماراة، وما كان صلى الله عليه وسلم ممترياً ولا شاكاً فيما يتلوه عن ربه في لحظة من لحظات حياته، وإنما هو التثبيت على الحق للرسول ولأمته من بعده.

ولكي ينهي القرآن الكريم الجدلَ والمناظرةَ حول هذه القضية، أمر اللهُ فيه الرسول الكريم أن يدعو النصارى إلى المباهلة، فيجمعَ الطرفان أبناءهم ونساءهم، ويقفا متقابلَيْن.. جمع النصارى أمام آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، إن كان النصارى موقنين بصدق دعواهم وهم ليسوا كذلك.. فيجأر الجميع بالدعوة إلى الله أن يحفظ الفريق الصادق، ويبيد الكاذبين.. فريق المشركين الضالين الذين أساءوا إلى الذات الإلهية، فوصفوها بالضعف حيث أحاجوها إلى ولدٍ يعضد أباه ويساعده.وفريق المؤمنين الذين يعرفون حق المعرفة ربَّهم بأسمائه الحسنى وصفاته العظمى. وحين أَزِفَ موعد المباهلة ورأى المشركون أنهم قاب قوسين أو أدنى من الهلاك، وأن الوادي سيضطرم عليهم ناراً، فمحمدٌ

نبي مرسل، هكذا اعترف أحبارهم، وأنه قد جاء بالفصل في أمر عيسى تركوا المباهلة، ورضوا أن يَسلموا في الدنيا، ويسلمَ لأحبارهم جاهُهم وسلطانهم، ولو كانوا في الآخرة حطبَ جهنم.. رضوا بالسلامة في الدنيا على أن يدفعوا لرسول الله الجزية عن يدٍ وهم صاغرون.

وهذا دأب المشركين، فهم حين يحاربون المسلمين ينفسون عليهم إيمانهم لأنه نور يهدي إلى الدرب القويم، وينفسون عليهم طمأنينتهم وهدوءهم لأنها نتاج التسليم إلى الله.. وهم حين يحاربون المسلمين يدافعون عن سلطانهم ومصالحهم الدنيوية ومطامعهم وأهوائهم.

• • •

سورة آل عمران (3)

[الآية 72]

(وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

إنَّ الحربَ غيرَ المعلنة أشد وقعاً من الحرب المعلنة، والكيد العملي غير المصادم أشد إيذاءً من المجابهة الصدامية.

لقد لجأ اليهود الذين رأوا ازدياد عدد المسلمين وشدة تمسكهم بدينهم وحبهم لله ورسوله إلى طريقة ماكرة لئيمة، فأمروا سفلتهم بإظهار الإيمان ثم الرجوع عنه.. مما يوقع بعض ضعاف النفوس والعقول، وغير المتثبتين من حقيقة دينهم وطبيعته في بلبلة واضطراب، وبخاصة العرب الأميين الذين يظنون أن أهل الكتاب أعرف منهم بطبيعة الديانات والكتب، فإذا رأوهم يؤمنون ثم يرتدُّون حسبوا أن ارتدادهم بسبب اطلاعهم على خبيئةٍ ونقصٍ في هذا الدين، فتأرجحوا ودخل الشك في قلوبهم، فلم يخلصوا لهذا الدين، وكانوا منه على حَرْفٍ، وهؤلاء يعتبرون عبئاً على الدين فلا هم أعداؤه ولا هم منه.
يقول سيد، رحمه الله وأسكنه الفردوس الأعلى، في الظلال، الجزء الأول، ص 415-416:

"ما تزال هذه الخدعة تُتَّخَذُ حتى اليوم في شتى الصور التي تناسب تطور الملابسات والناس في كل جيل، ولقد يئس أعداء المسلمين أن تنطلي اليوم هذه الخدعة، فلجأت القوى المناهضة للإسلام في العالم إلى طرق شتى، كلها تقوم على تلك الخدعة القديمة.

أن لهذه القوى اليوم في أنحاء العالم الإسلامي جيشاً جراراً من العملاء، في صور أساتذة وفلاسفة ودكاترة وباحثين، وأحياناً كتاباً وشعراء وفنانين وصحفيين، يحملون أسماء المسلمين لأنهم انحدروا من سلالة مسلمة، وبعضهم من "علماء" المسلمين.

هذا الجيش من العملاء مُوجَّه لخلخلة العقيدة في النفوس بشتى الأساليب، في صورة بحث وعلم وأدب وفنٍّ وصحافة، وتوهين قواعدها من الأساس، والتهوين من شأن العقيدة والشريعة سواء، وتأويلها وتحميلها ما لا تطيق. والدق المتواصل على"رجعيتها، وتطرُّفها وتزمتها" والدعوة إلى

التفلت منها، وإبعادها عن مجال الحياة إشفاقاً عليها من الحياة أو إشفاقاً على الحياة منها، وابتداع تصورات ومُثل وقواعد للشعور والسلوك تناقض وتحطم تصورات العقيدة ومثلها، وتزيينِ تلك التصورات المبتدعة بقدر تشويه التصورات والمثل الإيمانية وإطلاق الشهوات من عقالها، وسحق القاعدة الخُلقية التي تستوي على العقيدة النظيفة لتخر في الوحل الذي ينثرونه في الأرض نثراً: ويشوّهون التاريخ كُلَّه ويحرفونه كما يحرفون النصوص! وهم بعد مسلمون! أليسوا يحملون أسماء المسلمين؟! وهم بهذه الأسماء المسلمة يعلنون الإسلام وجه النهار وبهذه المحاولات المجرمة يكفرون آخره..

ويؤدون بهذه وتلك دور أهل الكتاب القديم، لا يتغير إلا الشكل والإطار في ذلك الدور القديم.

وكأن أهل الكتاب يقول بعضهم لبعض، تظاهروا بالإسلام أول النهار، واكفروا آخره لعل المسلمين يرجعون عن دينهم، وليكن هذا سراً بينكم لا تبدونه، ولا تأتمنون عليه إلا أهل دينكم.. ."

سورة النساء(1)
[الآيتان 78- 79]

(أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (78) مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا)

في هاتين الآيتين الكريمتين وقفات هي :

1 - أن الموت حق على المخلوقات لا ينجو منه أحد.

2- أن المسلمين من ضعاف الإيمان وإن كانوا لا يستطيعون أن ينسبوا إلى الذات العلية إلَّا كل خير فإنهم ،وإن كانوا على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكتسبوا شفافية الروح وعمق الإيمان، فالشفافية وعمق الإيمان رزق من الله تعالى، فهم يتجرؤون على رسول الله صلى الله عليه وسلم – فيتهمونه زوراً– أنه سبب بلائهم من الناس، إذ طلب إليهم الجهاد في كل جهة، والمشركون من حولهم، وكأنه يرمي بهم إلى الموت.

3– أن على كل مسلم مؤمن بالله تعالى أن يعتقد أنه لا يضر ولا ينفع إلَّا الله تعالى، فهو سبحانه خالق الضّرِ والنفع وبيده مقاليد الأمور، فالمؤمن الحق لا يتهم الدعاة المخلصين وعلى رأسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما لا يليق بهم.. فكل ما يصيب المؤمن يرفع درجاته ويعظم له أجراً.

4– أن من يرفع عقيرته فيتهم أولياء الله والدعاة إليه إنما يتهم نفسه بضعف العقل وقلّة الفهم، بل إنهم لا يكادون يفقهون ما يُلقى إليهم من الآيات التي تعزو كل ما يصيب الإنسان من خير أو شر لعلم الله.

5– وأن من يجرح رسول الله صلى الله عليه وسلم والمخلصين الدعاة إلى الله، يشير إلى نفسه بضعف الإيمان، وإلى الناس بان يحذروه، ويشكوا فيه.

6- وأن التجريح برسول الله ﷺ ، والتشاؤم به، والتطير به وبمن يسير على طريقته، وصمٌ لهؤلاء المتشائمين بالضلال والانحراف والبعد عن الدين.

ومن جاءهم بهذا الدين؟! أليس هو الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الذي يتشاءمون به ويتطيرون به وينسبون إليه صلى الله عليه وسلم ما لا يليق به من عصمة ورحمة وخلق عظيم ويُمنه وبركة؟!! فأقل ما يوصمون به النفاق والمروق من الدين.

7- أن الحسنة من الله تصيب الإنسان حين يلتزم بشرع الله تعالى ويعمل به ويُحكِّمه في حياته، وأن السيئة تصيب الإنسان حين يبتعد عن شرع الله، فيظلم نفسه ويتيه في دياجير الشك والفساد.

8- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يُبلِّغ أمر ربِّه، ويدعو إليه وفق شريعة الله، وكان من الواجب أن ينظر إليه أنه هادٍ بذل نفسه لله ولا يسأل الناس أجراً على ما يفعل (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ) فالشؤم أبعد ما يكون عنه، والطيرة أبعد ما تكون عنه وهل رأيت عقلاء يتطيرون بمن يفتح عقولهم وقلوبهم إلى الخير والهدى.. إن يكن الناس جحدوا فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالله شاهد على حسن أداء رسول الله صلى الله عليه وسلم للرسالة، وكفى بشهادة الله للنبي فخراً، ولمن يسير على دربه عِزّاً.

إن الموت الذي يفرُّ منه الإنسان مُدركه، ولا علاقة له بسلم أو حرب، فالكثرة الساحقة من الموتى. انتهت حياتهم على فراشهم، لا يؤخر الموت بُعْدٌ عن ساحة المعركة ولا يُقرِّبهُ خوضها.. وما أعظم أن يتمثل المسلم بقول خالد رضي الله عنه: لقد خضت زهاء ثمانين معركة وما في جسمي شبر إلا وفيه ضربة سيف أو طعنة رمح.. وها أنذا أموت على فراشي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء(فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (34) [1] .

لكن ضعاف العقل، ضعاف التفكير، يحسبون خوض المعارك دنواً من الموت فهم لا يريدونه، ويصبُّون جام غضبهم على من يدعوهم إلى القتال.. ويعتبرونه أسَّ المساوىء.. والقرآن يدعوهم إلى الجهاد ولكنهم لا يرون فيه سوى إزهاق الأرواح وكأنهم لا يموتون، ولن يموتوا،

---

(1) سورة الأعراف: الآية 34.

وتناسوا القضاء والقدر، والفاعل الحقيقي في الموت والحياة، الله تعالى.

وتناسوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم وظيفته الأولى والأخيرة أنه رسول الله لا يُحْدث ولا يُنْشيء ولا يشارك الله تعالى في مسؤولية أو ألوهية.. إنه يُبلِّغ ما يأمره الله به، فطاعته طاعة لله ومعصيته معصية لله.

والمؤمنون الأتقياء هم الذين يعرفون فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكانته في قلوبهم ثانياً، أمَّا أولاً فمكانته عند الله لا تدانيها مكانة.
ماذا عن الطِيَرَةِ؟ إن العربي قديماً كان إذا أراد أمراً أمسك طيراً ثم رماه إلى أعلى فإن طار يميناً تفاءل وإن طار يساراً تشاءم وتطيّر، وهذا يدل على جهل.. فما علاقة الطير وطيرانِه يميناً وشمالاً بالأمر الذي يريده أحدهم.. إنها الأوهام والأساطير التي يبني الناس حياتهم ومعتقداتهم عليها..
والإيذاء الذي لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم من تَطَيُّرِ ضعاف الإيمان واليهود، هو، هو الذي لحق بموسى من قبل (فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ) [1] .

فملة الكفر واحدة والتفكير الجاهلي واحد، والتعليل الجاهلي واحد، فإنما ينطلق الجميع من أهوائهم وخرافاتهم .. إن يد الله منعت عن فرعون وقومه الخير (ولَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ) (2) ، ولكنهم لا يدركون أن الله تعالى أراد عقابهم لجمودهم وكفرهم وأرسل عليهم إذلالاً لهم وجزاءً – على كفرهم– وفاقاً– أرسل الطوفان– والجراد والقمل والضفادع والدم، آيات مفصلات.. فهل ثابوا وتابوا ورجعوا إلى ربهم؟!.. كلا.. وأنَّى لهم أن يرجعوا وهم أصحاب القلوب الجوفاء، والأفئدة الصم التي طبع الله عليها بسبب ضلالهم وكفرهم..

---

[1] سورة الأعراف: الآية 131.

[2] سورة الأعراف: الآية 130.

والقول واحد في هؤلاء المُتَطيِّرِيْنَ.. في كل زمان ومكان. فهؤلاء أصحاب القرية يتطيرون بثلاثة من الأنبياء :

(إنا تطيرنا بكم..). [2] فيرد عليهم أنبياؤهم موضحين أن

كفرهم وعنادهم سبب الشؤم والتطير (قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ) [3] لأنهم أسرفوا في العناد والكفر.. ومادوا في الضلال.. إنها مسيرة التاريخ، والأسباب تؤدي إلى النتائج.. من عمل خيراً فلنفسه ومن أساء فعليها.

* * *

---

(2) سورة يس: الآية 18.

(3) سورة يس: الآية 19.

سورة النساء(2)

[الآيات 105- 109]

(إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً (105) وَاسْتَغْفِرِ اللّهَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً (106) وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً (107) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً (108) هَاأَنتُمْ هَؤُلاء جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (109)

* * *

ما أعظمك يا رب؟!! وما أعظم تربيتك للمسلمين، تأمرهم أن ينصفوا أعداءهم وأعداؤهم يتربصون بهم الدوائر!! ويحيكون لهم المؤامرات ويمكرون بهم، تُعلمُنا أن نعدل بين الناس، فنحفظ حقوقهم، وهم يريدون لنا الموت الزؤام، ويرسمون الخطط للإيقاع بالمسلمين، فينشرون الأكاذيب، ويؤلبون المشركين، ويشجعون المنافقين، ويطلقون الإشاعات حول النبي صلى الله عليه وسلم ، ويحاولون تفسيخ المجتمع الإسلامي.

في ظل هذا المكر الشديد من اليهود نزلت آية تنصف يهودياً اتُّهم ظلماً بسرقة، وتدين الذين تآمروا على اتهامه، وهم بيت من الأنصار في المدينة، والأنصار يومئذٍ عُدَّة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وجُنْدُهُ في مقاومة هذا الكيد الناصب من حوله، ومن حول الرسالة والدين والعقيدة.

لقد شرّف الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم ، وعظّمه حين فوض إليه الحكم بين المسلمين واليهود..

ثلاثة إخوة من الأنصار بشر وبشير ومبشر وابن عم لهم يسرقون سلاحاً وطعاماً لرفاعة بن زيد أحد المسلمين في المدينة، فلما اتهمهم وأثبت ذلك طرح بشيرٌ السلاحَ في بئرٍ لأحد اليهود، واسمه زيد بن السمين، وأخذت منه (من بئره) وبرّأ الرسول ساحة بشر، والتصقت التهمة بزيدٍ هذا،

ولكن الله تعالى أراد أن يعلم رسوله والمسلمين من ورائه،

أن هذا الدين لا يحابي أحداً من أتباعه على حساب الآخرين، ولو كان من أعدائه.. فالحق حق، أما القرابة والمصلحة، والمتابعة في الرأي والدين فلا مكان لها أمام الحق والعدل، وإلَّا كان المسلمون كغيرهم، لا يفترقون عنهم في صغير ولا كبير.

كشف الله المستور، وعرَّف نبيه ما فعله بشرٌ وأخواه وبرَّأ اليهوديَّ، فهرب بشر إلى مكة ثم إلى خيبر مرتداً ومات كافراً..

وظلت الآية تُتْلى، وتظلُّ تتلى إلى يوم القيامة دليلاً على إنصاف الإسلام والمسلمين، ودليلاً على حُبِّهم للحق والعدل مهما كان صاحبه صديقاً أو عدواً، فالعبرة للمبدأ لا للمصلحة، وللقيم لا للأهواء، والهدى لا للضلالة.

وتُعلِّمنا الآيات التي نزلت بهذا الخصوص أموراً كثيرة منها.

1- أن الله شرَّف رسوله بالرسالة والدين القويم ليحكم بالحق، ويقيم العدل.

2- أن لا ندافع عن الخائنين مهما كانوا، فالحق أولى أن نتبعه.

3- أن نستغفر الله، فالإنسان لضعفه قد يتصرف بما لا يلائم ما يحمل من قيم ومبادئ، وقد يتبع هواه لحظة ثم ينتبه إلى خطئه فيعمل على إصلاحه ويطلب المغفرة من الله، والله أهل للمغفرة.

4- أنه كان على هؤلاء الذين أخطأوا أن يعدلوا إلى الحقّ فور إحساسهم بالذنب، وأن لا يتمادوا في باطلهم، إن كانوا مؤمنين، والمؤمن لا يقنط من رحمة الله بل يلجأ إليه منيباً تائباً.

5- أن الخائن ليس من المسلمين وليسوا منه، إذ الغش والإفساد ليس من سمة المسلمين.

6- أن المؤمن يشعر دائماً بمعية الله فهو يراه ويراقبه فلا يعصيه، وما أجمل وصية لقمان لابنه: (يا بني اعص الله في مكان لا يراك فيه)، أما الذين يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله فهناك دخل في إيمانهم، ينبغي أن يصفّوا من هذا الدخل.

7- أن تكون سريرة المؤمن كعلانيته، فمن أحس بمعصية الله كان مع الناس واضحاً لأنه يرضي الله بذلك ويرغب في مثوبته.

8- أن العقاب في الدنيا زائل بزوالها، أما العقاب في الآخرة فإنه كبير ودائم- إن لم يعف الله تعالى ويغفر - ولا جرم أن المؤمن يرضى بالعقوبة الزائلة عن العقوبة الدائمة.

9- أن إيذاء اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم والإرصاد له لا يمنعه صلى الله عليه وسلم أن يحكم بالعدل بينهم لأنه رُبِّيَ على عين الله ورعايته فزكَّاه الله عقلاً وقلباً وجسماً ومدح خُلُقَهُ فقال : (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ) [1].

---

[1] سورة القلم : الآية 4.

سورة النساء(3)

[الآية 153]

(يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُّبِيناً).

نلمح القرآن الكريم يندد دائماً بمواقف أهل الكتاب من اليهود من الرسل والرسالات، فهم دائماً متعنتون معه في طلب الدلائل على نبوتهم، ورسالاتهم.. ولَيْتهم بعد ذلك يؤمنون.. فهم لا يؤمنون بل يهزأون ويسخرون ثم يقتلون الأنبياء.

وفي هذا الموقف، في هذه الآية ، يعاجزون النبي صلى الله عليه وسلم ، فيسألونه أن ينزل عليهم كتاباً من السماء.. يريدون أن يلمسوه بأيديهم بعد أن يرَوه يدنو منهم نازلاً من السماء.. ويرى النبي عليه الصلاة والسلام من سؤالهم هذا وقاحة ما بعدها وقاحة، فالإيمان لا يعتمد على الحواس فقط، إنما يعتمد على التصديق بالعقل، والثبات في القلب، إنما هو عمل بالأركان وقناعة الجنان وتفاعل الوجدان.

لكنهم في مسيرتهم، منذ أن وُجِدوا إلى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة يُكذِّبون الرسل والدعاة، ويسخرون منهم ويبطشون بهم، ويطلبون منهم ما لا يطلبه عاقل.. ولَيْتهم بعد طلبهم هذا يؤمنون.. ولكنهم خبثاء، طويّاتهم فاسدة، مَرَدوا على الفساد ومخالفة الحق، والبحث عن الباطل بين ظلمات الأحابيل الشيطانية.

فلا تأْسَ – يا رسول الله– ولا تحزن، فلك بموسى عليه السلام ومن بعده مواساة، ولعله إن عرفت ما فعلوه مع موسى والأنبياء بعد– وهذا غيض من فيض– تأكدْتَ .، أن أحفاد القردة والخنازير، جُبِلُوا على المراوغة، والكذب والإيذاء والكفر، لقد سألوا موسى عليه السلام أكبر

مما سألوك، فسألوه أن يروا الله جهرة، وهم الذين يدعون أنهم آمنوا به، فهو نبيهم وقائدهم ومنقذهم، فهم غلاظ لا يؤمنون إلَّا بالمحسوسات، مُتَعَنِّتون فلا يُسلمون إلا تحت القهر والضغط.

يغدرون إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وكيف يرون الله؟! وهل يستطيع الكليل الضعيف، أعشى البصر، أن يحيط بالنور الباهر والضوء الساطع؟ !! وهل يحيط مَنْ هو جزء من الوجود أن يحيط بمن أوجد الوجود؟! وأنَّى للضعيف أن يعرف الكمال المطلق؟! لكنهم لِجهلِهم واستكبارهم سألوه أن يروا الله عياناً، فكان الجوابُ لتطاولهم صاعقةً أحرقتهم، ولا جواب لمن لا يعرف حدوده فيتجاوزها ظلماً وعلواً إلَّا أن يعاقب العقاب الأليم جزاءً وفاقاً، وفي رواية أخرى أنهم أصيبوا بالرَجْفة.

أما إخوانهم وأبناؤهم فلم يستطيعوا الارتفاع إلى مقام التوحيد، لِلُصوقهم بالأرض وأوحالها، وحقارة نفوسهم، فعبدوا العجل الذي صنعه السَّامريُّ، فهم لا يؤمنون كما ذكرنا إلا بالمحسوسات– إن آمنوا– فكان عاقبة المجرم الأول، السامري، أن مات شريداً طريداً لا يمسُّ شيئاً، ولا يمسه شيء، إلا أخذته الرجفة، وأصابته القشعريرة، فهو ينادي بملء صوته أينما ذهب، وحيثما حل، لا مساس، لا مساس. وما أسوأها من حياة!!

وشملهم الله دونه، بعفوه وكرمه، فسامحهم وتجاوز عن خطأهم، ويا له من خطأ فهو الإشراك بالله بعد أن جاءهم نبيهم بالبينات والشريعة الواضحة.. لكنَّ الدونية التي رضعوها وجبلوا بها

لا يستطيعون عنها فكاكاً.

واليهود لهم طبعٌ متمردٌ، ونفس لا تلتزم إلَّا إذا قُهرت وأُخذت بالقوة، فآتى الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام سلطاناً عليهم، يخافونه، وزرع في قلوبهم المهابةَ له، والرضوخَ أمامه، وسخَّر له كثيراً من أدوات القهر الحسي.

فهذه الألواح التي حملها معه حين قفل راجعاً من لقاء ربه جل وعلا، لم يستسلموا لها ويرضوا بالعمل بها إلا حين رأوا الجبل العظيم، وقيل الصخرة العظيمة، معلقاً فوق رؤوسهم يهددهم بالوقوع عليهم، إذا هم لم يستسلموا، ولم يتعهدوا بأخذ ما أعطاهم الله من العهد، وما كتب عليهم من التكاليف في الألواح.

عندئذٍ فقط استسلموا وأخذوا العهد، وأعطوا الميثاق المغلَّظ الموثَّقَ أن يدخلوا بيت المقدس سُجّداً، وأن يعظموا السبت الذي طلبوا أن يكون لهم عيداً.

فماذا كان منهم بمجرد أن ذهب عنهم الخوف وغاب عنهم القهر؟!! لقد تملصوا من الميثاق الغليظ الذي أُخذ عليهم ونقضوه، وحرَّفوا الآيات وكفروا بها.. وقتلوا أنبياء الله بغير حق، وتبجحوا حين قالوا: نحن لا نقبل الموعظة، فهي لا تصل إلى قلوبنا، لأن القلوب مغلقة ،بل إنها بعد الغلق مقفلة، فلا ينفذ إليها شيء مما يقوله الأنبياء.

هذه المقولة: " قلوبنا غُلف " التي قالوها بسوء أدب وإصرارٍ على المعصية، وضربٍ بكل العظات والعبر عرض الحائط أورثتهم غضب الله تعالى، فطبع على قلوبهم فصاروا كفاراً لا يعرفون للإيمان سبيلاً إلا من رحم الله وهم قليل، خالفوا طريق اليهود المعوج، وفتحوا قلوبهم للحق فكتب الله لهم الإيمان، وزينه في قلوبهم.

وهناك- بعد ذلك- أسباب عديدة استحقوا بسببها ما استحقوا من تحريم الطيبات عليهم في الدنيا ووعيد بالنار التي تنتظرهم في الآخرة، وساء المآل... منها:

ا- أنهم كفروا بنبوة عيسى عليه السلام حين جاءهم يصحح معتقداتهم ويخفف عنهم- بإذن الله- بعض ما عوقبوا به، كفروا بعيسى ووصفوا أمَّه الصِّدِّيقة بالزنا.. ذلك القول الذي يكررونه مع الأنبياء العظام، فيعقوب عليه السلام رمَوه بالزنا بزوج ابنه، بعد أن شرب الخمر، فسكر.. حاشاه أن يكون كذلك، فهو عبد الله و رسوله.

ولوطٌ سقته بنتاه الخمر فزنا بهما فولدتا سفاحاً.. وهل يقول بحق الأنبياء هذه المقالة الخبيثة إلا من سفه نفسه؟!!

أفلا يرمون الصديقة، وهذه عادتهم لعنة الله عليهم؟! وإذا كان الأبرار الأطهار والعفيفات الطاهرات لم يسلموا من أذى اليهود فما ظنك بسائر البشر!!!

2- لم يكتفوا بان كفروا برسالة عيسى، إنما حاولوا قتله، وكادوا يظفرون به لولا العناية الربانية التي رفعته إلى السماء، ليكون في حرز حريز. وأنَّى يصلون إليه، وقد كتب الله في سابق علمه أنه سيعود آخر الزمان يَدكُّ معاقلهم، ويحاربهم، ويقتلهم، ويفرض عليه الإيمان به نبياً يحكم

بشريعة محمد عليه الصلاة والسلام؟! هذه الشريعة التي يكيدون لها، ولن يفلحوا ما دامت السموات والأرض، فالله حفظها بحفظه، وكلأها برعايته، وإنَّ مما يثلج الصدر أنه ما من كتابي يموت إلَّا وهو في حشرجة الروح يعرض عليه كفره فيموت مغموماً مهموماً يندب حظه العاثر، وكفره الذي أودى به المهالك.

3- أنهم ظلموا أنفسهم بكفرهم، فاستحقوا غضب الله وناره، وظلموا غيرهم حين صدّوهم عن سبيل الله بالإرهاب المادي، والإغراء المعنوي، فهم يلمزون المؤمنين، ويسبُّونهم، ويشتمونهم، ويدفعون الأموال لأعوانهم وأزلامهم ثمناً لإبادة المسلمين، أو التضييق عليهم..

4- كما أنهم حاربوا الله علانية، إذ تعاملوا بالربا، وقد نهاهم الله عنه، بل يرون من العمل بالدّين- الدّين اليهودي المحرَّف- أن يقرضوا غير اليهودي بالربا، وأن يأكلوا أمواله بالباطل، وبكل طريقة، مهما كانت مجحفة وظالمة.

وهكذا يكشف الله تعالى حقيقة اليهود، ويفضح خبث طويتهم، وعداءهم للدين ورسله على مرِّ الدهور وكرِّ العصور.

ويوضح للمسلمين الطريق السديد في تعاملهم مع هذا الصنف الماكر، فلا يأمنون له، ولا يتعاملون معه إلَّا بالحذر والحيطة...أليسوا أعداء الله وأعداء رسوله وأعداء المؤمنين؟!!

5- كما يؤكد سبحانه أن موقف اليهود من الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وإنكارهم نبُوَّته هو موقفهم من سائر الأنبياء والرسل، وهذا لا يضير الرسول الكريم.

وإذا أتتك مَذمَّتي من ناقص *** فهي الشهادة لي بأني كاملٌ

ويرفع الله مقام النبي صلى الله عليه وسلم، فيذكره في مقدمة الأنبياء والمرسلين، فهو أعظمهم وإن جاء آخرَهم، فهو الخاتم لبناء التوحيد، وهو صاحب الدين الذي ارتضاه الله لعباده.

وهو صاحب الدين الذي لا يقبل الله إيمان عبده وإسلامه إلَّا به. (إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ) [1].

والله يشهد أنَّ محمداً رسوله.. وهل بعد شهادة الله شهادة، اللهم آمنا بك رباً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً، وبالإسلام ديناً فتقبل منا إنك أنت السميع العليم.

---

[1] سورة آل عمران: الآية 19

سورة المائدة

[الآيتان 51- 52]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (51) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ)

هل تجوز موالاة اليهود والنصارى؟ إن من يقول بهذا يَدمُج نفسه فيهم، ويقف معهم في خندق واحد لأنه صار منهم وصاروا منه..

وما أشبه الليلة بالبارحة، إنها النفس الإنسانية الخاوية، الخالية من الإيمان التي ترى الدنيا أولاً، وترى الدنيا آخراً، تنظر إلى أمام أنفها ولا تستطيع النفاذ إلى حقيقة الحياة وحقيقة أن اليهود والنصارى بعضهم من بعض، وأن المسلم متميِّزٌ عنهم فهو عبد الله موحد له، وهو يعلم أن سفره إلى الآخرة حقٌّ لا تشوبه شائبة، وأن السفر يستتبع الزاد، وأن الزاد يجب أن يكون مبرأ من الهوى وحظ النفس.. وأن خير الزاد التقوى. وأين موالاة أهل الكتاب- أعدائنا- من التقوى؟!!

إن البراء من الشرك والمشركين أول الدرب إلى الله تعالى والوصول إليه سبحانه، وهل تكون موالاة من عبدوا عزيراً ومن عبدوا المسيح طريقاً إلى الله وقد رضوا أن يكونوا مشركين كفاراً "وقالت اليهود عزير ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل، قاتلهم الله أنى يؤفكون ".

قال محمد بن إسحاق:

كان من أمر بني قينقاع أن امرأة من العرب قَدِمت بجَلَب "ببضاعة" لها، فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها،

فلما قامت انكشفت سوءتها، فضحكوا بها، فصاحت، فوثب رجلٌ من المسلمين إلى الصائغ فقتله، وكان الصائغ يهودياً، وشدَّت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع.

وكان بنو قينقاع أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا على حكمه.. فقام إليه عبد الله بن أبي بن سلول حين أمكنه الله منهم، فقال يا محمد أحسِنْ في مواليَّ ! فأبطأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد، أحسن في مواليَّ ! فاعرض عنه، فادخل ابنُ سلولٍ يدَه في جيب درع رسول الله صلى الله عليه وسلم (أي لامس صدره وشدد) فقال له (رسول الله): أرسلني (اتركني)، وغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى رأوا لوجهه ظللاً (تغير وجهه لغضبه) ثم قال: ويحك، أرسلني. قال: لا، والله: لا أرسلك حتى تحسن في مواليَّ أربع مئة حاسر وثلاث مئة دارع. قد منعوني من الأحمر والأسود (من العرب والعجم) تحصدهم في غداة واحدة؟! إني والله امرؤ أخشى الدوائر (سوء المنقلب) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هم لك.

ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان لهم من حِلْفه مثل الذي لهم من عبد الله بن أبي، فخلعهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتبرَّأ إلى الله عزَّ وجل والى رسوله من حلفهم، وقال: يا رسول الله، أتولى الله ورسوله والمؤمنين وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم.

ففيه، وفي ابن سلول نزلت هذه القصة.

إن دين الإسلام هو الدين الوحيد الذي يقبله الله من الناس (إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ)[1] ومنهجه هو المنهج الكامل المنفرد بقدرته على معالجة مشاكل الحياة إلى يوم القيامة ولا لقاء بينه وبين التشريعات الأخرى، ولا مقاربة، وإلَّا لم تكن هناك حاجة إليه إذا كانت الشرائع قريبة منه.. فموقف الإسلام حاسمٌ وفاصلٌ من التشريعات الأخرى.

---

[1] سورة آل عمران: الاية 19.

والذين يحاولون تمييع هذه المفاصلة الحاسمة باسم التسامح والتقريب بين أهل الأديان السماوية يخطئون فَهْمَ معنى الأديان، كما يخطئون فهم معنى التسامح، فالدين الأخير المقبول عند الله (الإسلامُ)، ولا تسامح في ذلك.. إنما التسامح يكون في المعاملات الشخصية، لا في التصور الاعتقادي، ولا في النظام الاجتماعي،(وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ) [1].

أما الذين يرون اليهود والنصارى أكثر قوة من المسلمين، وأكثرَ عدداً، فيميلون إليهم، فإيمانهم ضعيف، والذين يرونهم أكثر غنى، والمصالح الاقتصادية أوفر حظاً معهم، إيمانهم ضعيف. والذين يقفون معهم ضد المسلمين، لأن المسلمين يريدون تحكيم القرآن وشريعة الله في الحياة، هؤلاء خرجوا عن الإسلام، ولو كانت أسماؤهم أسماءَ المسلمين، فالنصر من عند الله، وهل هناك من هو أقوى من الله؟!! والعزة من عنده والغنى بيده سبحانه، ولا ينسى هذا كلَّه إلا الضعيفُ المتهالك، الذي يرى نفسه دون أهل الكتاب.

وَوَصْفُ الله تعالى هذا الصنف الموالي لأهل الكتاب، أنهم " في قلوبهم مرض"، والسقيم المريض يتصرف بحمق، ويسيء التصرف، لأنه لا يعرف الخير من الشر إلا من زاويةٍ قاصرةٍ، ولو كان يعرف الله حق المعرفة، ويؤمن به حق الإيمان، تبرأ من موالاتهم واتخذهم أعداء.. لأنهم اتخذوا ديننا هزواً ولعباً وتربصوا بنا الدوائر، ومكروا بنا وأعلنوا عدواتهم لنا.. فما الذي يجمعنا وإياهم؟!

إنه البراء والولاء.. البراء من الكافرين والولاء لله ولرسوله وللمؤمنين وليس من دون ذلك بصَّةٌ من إيمان.

ليس في قلبي سوى	الإيمانُ باللهِ العظيم
فهوربِّي وهوحَسْبِي	وهو بي البَرُّالرحيم
لا أُوالي في حياتي	غيرمولاي الكريم

---

[1] سورة آل عمران: الآية 85 .

لا أوالي غير دين الـ مصطفى خيرِ الأنام

فهو حِبي، نورُ عيني وله مني السلام [1]

ما الذي يجمعنا وإياهم؟ والمفاصلة حدَّدها الله تعالى في قرآنه الكريم يعلنها على الملأ إلى قيام الساعة.. يعلنها منادياً المؤمنين أن يحذروا أهل الكتاب: (فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاء) [2] .

ومنادياً المسلمين الالتزام بالدين القويم، فالالتزام به يورث ثبات الإيمان، ودوامَ حب الله لهم، وزرْعَ حبِّه في قلوبهم، ويهبهم العزّة والمنَعة، ويجعلهم بالجهاد- سادة الدنيا وقادتها، فيدكون معاقل الكفر، ولا يخافون في الله لومة لائم، ويتفضل عليهم بنعمه الكثيرة فهو واسع النعم.

ومنادياً المؤمنين موضحاً أنَّ اليهود أعداءٌ، اتخذوا الصلاة، قيامَها وركوعَها وسجودها مجالاً للسخرية من المسلمين والاستهزاء بهم، فأي ولايةٍ ولايتُهم؟؟!! وماذا يتبقى للمسلمين من كرامة وإيمان إن ارتضوا أهل الكتاب أولياء؟! إنها نداءات ثلاثة [1] حريٌّ بالمسلمين أن يَعُوْهَا وأن يعملوا بها..

فلا لقاء بين المؤمنين الملتزمين بشرع الله.. وأبناء القردة والخنازير وعبدة الطواغيت، الذين غضب الله عليهم ولعنهم لعناً كبيراً، أبناء القردة والخنازير الذين يسارعون في الإثم والعدوان وأكل السحت.

أبناء القردة والخنازير الذين أساءوا إلى الذات الإلهية فوصفوا الله بالفقر والبخل وترفعوا عن ذلك..

أبناء القردة والخنازير الذين يسعون في الأرض فساداً ويؤجِّجون الحروب، ويسعِّرون نارها.

لا لقاء بينا وبينهم ،فالولاءَ الولاءَ، والبراءَ البراءَ.

---

[1] الأبيات للمؤلف.

[2] سورة النساء: الآية 89.

[1] الآيات الثلاث 51- 54-57.

سورة الأنعام

[الآية 33]

(قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ).

يجلس النبي صلى الله عليه وسلم في زاوية من زوايا المسجد الحرام بمكة مغموماً حزيناً مهموماً، ينظر إلى الكعبة المشرفة، ويخاطب ربه.. أنت تعلم يا رب أني ما آليت جهداً في دعوة القوم إلى توحيدك وعبادتك، وبذلت غاية وسعي أُذكِّرهم بخالقهم، وأُعرِّفهم بآياته، أنذرهم عقابه، وأرغِّبهم في ثوابه.. ولكنهم ينظرون إليَّ مغضبين، تطير من أعينهم الشرر، وتنبعث من قلوبهم موجاتُ الكره والغضب، يسمعونني قارص الكلام، ويصمونني بالكذب تارة..والجنون أخرى.. والسحر ثالثة.. وقد كانوا يدعونني الصادقَ الأمين.. الصادقَ في كل ما أحدثهم، الأمينَ فيما يودعونه عندي من الودائع التي لا يأمنون أن يودعوها أبناءهم وآباءهم وأمهاتِهم وإخوانَهم.. إنَّ كثيراً ممن يكذبونني ويتقوَّلون عليَّ الأقاويل لهم عندي أمانات لا يطمئنون إلى تركها في بيوتهم..

كانت نفس الرسول الكريم صلوات الله عليه وسلامه، هذه النفس الشفَّافة التي تتحمل الجبال في قوتها الرقيقة، التي تستعذب العذاب في إيصال دعوة الله إلى قريش وجيرانها، الصافية التي تستقبل شوائب أذى الكافرين بإيمان قوي وعزيمةٍ لا تتضعضع، تتأثر من انصراف قريش ذوي القلوب القاسية عن تقبل هذا الدين العظيم، وترمي صاحبه بأسوأ الصفات.. وهم يعرفونه مثال الرجل الكامل، والإنسان القدوة.

أليس هذا مما يثير الآلام والأحزان؟!! ويجعل الهموم تجثم على القلب الشريف جثوم الجبال الرواسي..

وهنا يُرطِّب اللَّهُ تعالى خاطر رسوله، وتمرُّ يد الرحمة والعناية على قلبه الشريف، وتمسح عنه همومه وتغسل عنه أساه.. إنهم يا رسول الله يعرفونك صادقاً أميناً كريماً طيباً لطيفاً.. ما شكُّوا

يوماً أنك كذلك.. ولكنه الركونُ إلى الأرض والالتصاقُ بأوحالها.. إنك تدعوهم إلى الاعتقاد الصحيح، والطُهْرِ من أدران الجاهلية، وقد تعوَّدوا التيهَ في الضلال والغي، والسقوط في أوحال الوثنية، لا يريدون الخروج من الظلام الذي أَلِفُوهُ إلى النورِ الساطع، وهل يرى الأعشى بهاء النهار وجمالَ الكون فيه..؟!!

إنهم لا يكذبونك يا رسول الله، لكن سادتهم وكبراءهم تلك الطبقة التي تتزعم المعارضة ولا تشك– أبداً– في صدق رسالتك، وأن هذا القرآن ليس من كلام البشر ولا يملك البشر أن يأتوا بمثل هذا القرآن.. هذه الطبقة– على الرغم من ذلك– يرفضون إظهار التصديق بك ، وبدعوتك، ويرفضون اتِّباعَ هذا الدين الجليل والدخولَ فيه!!! إنهم لم يرفضوا لأنك كاذب– حاشاك يا رسول الله– لكنْ لأنَّ في دعوتك خطراً على مكانتهم وخطراً على نفوذهم، وخطراً على مكاسبهم.. من أجل ذلك صدّوا عن الإسلام وقرَّروا الجحود بآيات الله والبقاء على كفرهم، وعنادهم، وشركهم.

والأخبارُ التي تقرر الأسباب الحقيقية لموقف قريش هذا، وحقيقة ظنِّهم بهذا القرآن كثيرةٌ.

روى ابن إسحاق: حدثني محمد بن مسلم الزهري:

أنه حُدِّثَ أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي، حليفَ بني زهرة. خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كلّ رجلٍ منهم مجلسا يستمع فيه، وكلٌّ لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الصبح تفرقوا، فجمعهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثالثة، أخذ كل رجل منهم فجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا.. فلما أصبح الأخنس بن شُريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها، وأعرف ما يراد

بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها. قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به.. ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه في بيته، فقال: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: ماذا سمعت؟.. تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب، وكنا كفرَسَي رهان، قالوا: منَّا نبيٌّ يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً، ولا نصدقه.. فقام عنه الأخنس وتركه..

وروى ابن جرير – من طريق أسباط عن السدي – في قوله : (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ) الآية[1].

لمَّا كان يوم بدر قال الأخنس بن شريق لبني زهرة: يا بني زهرة إنَّ محمداً ابنُ اختكم، فأنتم أحق من ذبَّ عن ابن اخته، فان كان نبياً لَمْ تقاتلوه اليوم، وإن كان كاذباً كنتم أحق من كفَّ عن ابن أخته، ققوا حتى أَلقى أبا الحكم، فإن غَلَبَ محمدٌ رجعتم سالمين، وإن غُلِبَ محمد فإن قومكم لن يصنعوا بكم شيئاً، فيومئذ سُمِّي الأخنس وكان اسمه أُبيَّاً، فالتقى الأخنس بابي جهل، فخلا به، فقال: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب؟ فليس هاهنا من قريش غيري وغيرك يستمع كلامنا.. فقال أبو جهل: ويحك ! والله إن محمداً لصادق، وما كذب محمدٌ قط، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء، والسقاية، والحجابة، والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟ فذلك قوله : (فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ)

وبغض النظر عن أن الآية مكية، وحادثة الأخنس مدنية في بدر، فقد قُرِن النص بالحادثة ليس بسبب النزول ولكن بسبب انطباق مدلولها على الحادث، وقصةُ عتبةَ بنِ ربيعة الذي عرض على قومه – وكان سيداً فيهم – أن يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعرض عليه أموراً، لعله يقبل بعضها، فيعطونه إياها، فيكُفَّ عن دعوته، وذلك حين أسلم حمزة رضي الله عنه، ورأى المشركون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيدون ويكثرون، فقالوا: نَعمْ أبا الوليد، قم إليه فكلمه.. فقام إليه فعرض عليه الزعامة، والمال وأجمل النساء و..

---

[1] سورة الأنعام: الآية 33.

فلما انتهى من عرضه قرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من أول سورة حم فصّلت.. فأنصت إليه عتبة مأخوذاً، فقام عتبة إلى قريش بوجه غير الذي ذهب به فلما سألوه قال:

سمعت قولاً، والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالسحر، ولا بالشعر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها لي.. خلوا بين الرجل وما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعتُ نبأ، فإن تصبه العرب كُفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكله ملككم، وعزُّه عزُّكم، وكنتم أسعد الناس به.. فقالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فاصنعوا ما بدالكم..

وقيل في الحادثة أنه لمَّا سمع قول الله تعالى : (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ) [1] أمسك عتبة على فيّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وناشده الرَّحم أن يسكت، ورجع إلى أهله، ولم يخرج إلى قريش، واحتبس عنهم.. إلى آخره. ولما حدثوه في هذا قال: أمسكت بفيه، وناشدته الرَّحِمَ أن يكف، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فخشيت أن ينزل بكم العذاب..

إنهم يعرفون صدق النبي صلى الله عليه وسلم ، فأبو جهل يؤكد في الرواية الأسبق، أن رسول الله صادق، ويعلل كفره.. وهذا عتبة يعرف صدق رسول الله، فأسكته ناشداً إياه الرَّحم..

وفي قصة الوليد بن المغيرة الذي نزلت فيه أوائل سورة المدثر: (إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ) [1] إذ ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمع منه، وعرض عليه، فقال يصف الرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن الكريم :

لا والله ما هو بكاهن: لقد رأينا الكهان فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته.

وما هو بشاعر: ولقد عرفنا الشعر كله. رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه. وما هو بساحر: لقد رأينا السُّحَار وسحرهم، فما هو بنفثهم، ولا عقدهم. والله إنَّ لقوله لحلاوة، وإنَّ عليه

---

[1] صورة فصلت : الآية 13.

[1] سورة المدثر : الآيتان 18/ 19.

لطلاوة، وإنَّ أعلاه لمثمر وإنَّ أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلَّا عرف أنه باطل. وإن أقرب القول أن تقولوا: هو ساحر.. جاء بقولٍ هو سحرٌ،. يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته..

فهؤلاء لا يكذبون رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما يرفضون تحكيم شريعة الله، والعمل بها لأنها تسلب سلطانهم، وتذيب طغيانهم.. فقد كانوا يجحدون آياتِ الله، وهم يعرفون اللغة جيداً، هُم أهلها، لأنها تجعل الحاكمية لله تعالى، فليس لهم من أسباب الزعامة– بعد ذلك– شيء.

وما كذَّبوا الرسل قبله– صلوات الله عليهم جميعاً– على مرِّ العصور وكرِّ الدهور إلَّا لأنهم لايتخلَّوْن عن سلطانهم الكاذب الذي اغتصبوه.

فاطمئن بالاً يا رسول الله ، وثابر على الدعوة إلى الله إنْ عليك الَّا البلاغ المبين..

وكِّلْ أمرهم إلى الله، فإليه عما قليل يصيرون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون..

***

سورة التوبة(1)

[الآية 58]

(وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ)

المنافقون هم المنافقون يبحثون دائماً عن فوائد لهم، يريدونها خالصة لهم ،وعلى أقل تقدير يريدون الأكثر لهم.. سواء قدموا الخدمة لهؤلاء وهؤلاء، أم لم يفعلوا ذلك.. همهم الأكبر جرُّ المنفعة إليهم، بالحق..بالجور.. لا يبالون بذلك.. فإن لم يصبهم شيء بدأوا يقدحون، وأخذوا يذمون.. باسم العدل تارة، وباسم الحق تارة أخرى، وباسم الرحمة ثالثة..

وفي هذه الآية نجد وصفاً دقيقاً لهم، فهم يسالون النبي صلى الله عليه وسلم أن يعطيهم من الزكاة.. والرسول صلى الله عليه وسلم يعطي من له الحق ويمنع من ليس له ذلك، وفي المجتمع كثير من الناس يحتاجون، لكنَّ نفوسهم كبيرة وكرامتهم عليهم عزيزة، لا يطلبون وهمُ المحتاجون، ويتعففون وهم أشدُّ ما يكونون فقراً (يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ) [1] لماذا لأنهم لا يلحفون بالسؤال، بينما تجد الطامعين مزّقوا غلالة الحياء ومدُّوا أيديهم بالسؤال ولسانهم بالجلد لمن يقصِّر عنهم.

وهكذا حال المنافقين الذين يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرهم أَوْلى بذلك، فإن أعطوا ذَكَرُوا رسول الله والإسلام بكل خير، لأنهم انتفعوا.. أما إذا منعهم أظهروا سخطهم ولمزوا الرسول صلى الله عليه وسلم وغمزوا فيه، فلا حرمة لأحد إلَّا إذا مدَّ يده إلى أفواههم فملأها، وإلى أيديهم فحمَّلها، وإلى عيونهم فبهرها..

وردت روايات متعددة عن سبب نزول هذه الآية الكريمة، تقصُّ أحداثاً معينة عن أشخاصٍ بأعيانهم لمزوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في عدالة التوزيع.

---

[1] سورة البقرة: الآية 273.

روى ابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : لما قسم النبي صلى الله عليه وسلم غنائم حنين، سمعتُ رجلاً يقول: هذه قسمة ما أُرِيْدَ بها وجه الله، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت له ذلك فقال: رحمة الله على موسى، لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر.

ونزلت :(وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ)[1].

وقال قتادة في– قوله الآية– يقول: ومنهم من يطعن عليك في الصدقات، وذكر لنا أن رجلاً من أهل البادية حديث عهد بالمدينة.. أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقسم ذهباً وفضة، فقال: يا محمد، والله لئن كان الله أمرك أن تعدل ما عدلت.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ويلك فمن ذا الذي يعدل عليك بعدي؟!!!.

وروى البخاري والنسائي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما النبي صلى الله عليه وسلم يقسم قسْماً إذ جاءه ذو الخويصر التميمي، فقال: إعدل يا رسول الله فقال: " ويلك ومن ذا يعدل إذا لم أعدل؟ !! فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ائذن لي، فأضرب عنقه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دَعْهُ فإن له أصحاباً يحقر أحدكُم صلاته مع صلاتهم وصيامَه مع صيامهم، يمرقون من الدين، كما يمرق السهم من الرمية". قال أبو سعيد:" فنزلت فيهم: (وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ) [1] ".

وروى ابن جرير عن داود عن أبي عاصم قال: أُتي النبي الله صلى عليه وسلم بصدقة، فقسمها هاهنا، وهاهنا حتى ذهبت، ورآه رجل من الأنصار، فقال: ما هذا بالعدل فنزلت الآية.

---

[1] سورة التوبة: الآية 58.

[1] سورة التوبة: الآية 58.

فهؤلاء المنافقون لا يقولون هذه القالة حرصاً على الدين ورغبة في الحق، ولكنْ غضباً على حظ أنفسهم، وغيظاً أن ليس لهم نصيب.. وهذا يدل على صريح نفاقهم.. فهل يشك أحد ممن لامس الإيمانُ قلبَه والنورُ بصيرته أن يلمز رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمانته وصدقه، وهو الملقب قبل بعثته بالصادق الأمين؟!! إنه النفاق في أوضح صوره، والكره للدين وصاحبه في أشدِّ بيانه.

لو رضوا بما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا ذوي أدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لكان لهم الأجر العظيم والمكانة الأسمى مِنْ لِعاع الدنيا ومتاعها الزائل.

لمّا وجد الأنصار على رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وزع الغنائم في حنين على أهل قريش.. جمعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : وقال:

أوَجَدْتم يا معشر الأنصار في عَرَض من أعراض الدنيا تألفت بها قلوب قوم دخلوا الإسلام جديداً.. ووكَّلتُكم إلى دينكم وإيمانكم وحبكم لله ورسوله؟؟ !! أَمَا ترضَون أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ تعودون بحبيبكم ونبيكم فهو قسمتكم.. ويا لها من قسمة.. وما أعظمها من نصيب، وما أجملها من فوز عظيم..!! وهنا بكى الأنصار واخضلَّتْ لحاهم، وسالت دموعهم تغسل ما علق في قلوبهم من الدنيا وشكوكهم – إن وُجِدت– برسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: رضينا برسول الله حظاً.. رضينا برسول الله قسمة. رضينا برسول الله نصيباً..

وهنا رقَّ قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو ذو القلب الرقيق والفؤاد الرحيم.. فدعا لهم: اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار.. وأبناء أبناء الأنصار..

هذا حال المؤمنين.. فلو أن المنافقين كانوا مثلهم وعرفوا حدودهم، رضوا بقَسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسألوا الله أن يرزقهم من فضله العميم.. وجأروا بالدعاء إليه.. والذي يجأر إلى الله بالدعاء لا يطلب من العباد إلّا حقه، ثم يسال ربَّ العباد أنْ يكرمه الإكرام الزائد.. ويتفضل عليه التفضل العميم، فيرغب عما في أيدي الناس إلى ما في خزائن رب العباد.

والمسلم يمتاز بالأدب الرفيع، أدب النفس، وأدب اللسان وأدب الإيمان.. يرضى بقسمة رسول الله صلى الله عليه وسلم رضا التسليم والقناعة لا رضا القهر والغلب.

قال تعالى: (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْاْ مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللّهِ رَاغِبُونَ)[1] أين جواب لو.. الجواب في أعماق النفس المؤمنة.. الجواب في ضمير المؤمن العارف بالله المحب رسوله.. الجواب في شفافية القلب الذي استنار بنور الإسلام واستضاء بضياء الإيمان.. إنَّ الجواب واضح في رضا الله ورعايته وفضله وكرمه.. ونِعمَ كرمُ الله وحبذا فضلُ الله.

* * *

---

(1) سورة التوبة: الآية 59.

سورة التوبة(2)

[الآية 61]

(وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيِقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ).

من بين المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل يدعى نبتل بن الحارث، وكان دميماً، مشوَّه الخلقة سِّيىء الأدب ،قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم من أراد أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحارث.

كان هذا المنافق يبسط لسانه في أذيَّة النبي صلى الله عليه وسلم ويقول: إن عاتبني حلفت له بأني ما قلت هذا، فيقبله، فإنه أذن سامعة !!

إنها صورة من صور سوء الأدب مع الرسول الكريم في صورة أخرى غير صورة اللمز في الصدقات. ولماذا يؤذونه ؟!! إن الذي لا يستطيع أن يعيش إلَّا في الماء الآسن والوحل والقاذورات لن يطيب له العيش في الأرض المرتفعة حيث الهواء النقي والماء العذب والنظافة.. والذي يستمع إلى أدبٍ رفيع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تعوده.. يستنكر هذا الأدب الرفيع.. ويصفه بغير حقيقته.

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع للصادق في صدقه حتى إذا فرغ شيَّعه بالدعاء وبشَّ في وجهه، ويستمع للكاذب في كذبه حتى إذا فرغ لم يجبهه بل شيَّعه بكلماتٍ تعلمه الأدب دون أن يجرح نفسه لأنه المربِّي.. القدوة.. وأصحاب الأدب الرفيع يحمدون له هذه الصفة، فلا يُجِّل الكريمَ الَّا الكريمُ.. أما اللئيم فيحسب لخساسةِ نفسه وسوءِ طبعه أن الرسول عليه الصلاة والسلام سمَّاعٌ لكل قولٍ، يصدِّق كلَّ انسانٍ، يجوز عليه الكذب والخداع والبراعة ولا يفطن إلى غش القول وزوره، ومن حَلَفَ له صدَّقه، ومن دسَّ عليه قولاً قبله، يقولون هذا بعضهم لبعض تطميناً أن يكشف النبي صلى الله عليه وسلم حقيقة أمرهم أو يفطن إلى نفاقهم، ويقولونه طعناً على النبي في تصديقه المؤمنين الخلص الذين ينقلون له ما يطلعون عليه من شؤون المنافقين وأعمالهم وأقوالهم عن الرسول والمسلمين.

ويأخذ القرآن كلامهم ليجعل منه ردا.. (وَيِقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ)[1] نعم.. ولكن: (قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ) [2] أذن خير يستمع إلى الوحي ثم يبلغه لكم، وفيه خيركم، وصلاحكم، وأذنُ خير يستمع إليكم في أدب ولا يجبهكم بنفاقكم، ولا يرميكم بخداعكم، ولا يأخذكم بريائكم،
(يُؤْمِنُ بِاللّهِ) [3] فيصدق كل ما يخبره به عنكم وعن سواكم (وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ) [4] فيطمئن إليهم ويثق بهم، لأنه يعلم منهم صدقَ الإيمان الذي يعصمهم من الكذب والالتواء والرياء.. (وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ) [5] يأخذ بيدهم إلى الخير..(وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) [6] فالله يغار على رسوله أن يؤذى، وهو رسول الله.. "من ظلال القرآن بتصرف".

يقولون ما يقولون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم يأتون إلى المسلمين يحلفون لهم أنهم ما ذكروا الرسول صلى الله عليه وسلم بسوء.. وهم كاذبون.. فكما يكذبون على صاحب الدعوة يكذبون على أتباعه .. (يَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ) (1) .
لماذا يحلفون؟ أيريدون إرضاء الناس.. فرضاء الله أولى، وإرضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى، (وَاللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ) [2] وإني لأعجب من الأسلوب القرآني الوحيد الذي استعمل (الهاء المفردة) في يرضوه للدلالة على أنَّ إرضاء الرسول مِنْ إرضاءِ الله تعالى.

فلو كانوا مؤمنين، وهذه الصفة هم بعيدون عنها، ما أساءوا إلى رسول الله الذي بُعث رحمةً للعالمين، وماذا يكون الناس، مهما بلغوا من قوة وعظمة، إلى قوة الله؟! لكنَّ الكافر بالله لا يعرف مقدار الله (وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)[3] .

ولو كان الكافر يعرف قدر الله لآمن به وأحب الرسول، وذاب في العمل بشريعته. لكنه مادي، لا يرقى إلى الفهم الصحيح ، فيحسب حساب العباد، ولا يعنو للمعبود. يذل ويخضع للعباد، ويجهل مقدار رب العباد، ويعرض عنه جهلاً وسفاهة.

إنهم حين يؤذون رسول الله، يؤذون المؤمنين، وينسَون أن الله تعالى الذي أرسل رسوله، يغضب أن يساء إليه، وينصره، ويدافع عنه، فمقام الرسول من مقام من أرسله..

لذلك كان التوبيخ والتأنيب،.. لذلك كان التهديد والوعيد.

---

(1) سورة التوبة: الآية 61.
(2) سورة التوبة: الآية 61.
(3) سورة التوبة: الآية 61.
(4) سورة التوبة: الآية 61.
(5) سورة التوبة: الآية 61.
(6) سورة التوبة: الآية 61.
(1) سورة التوبة: الآية 62.
(2) سورة التوبة: الآية 62.
(3) سورة الأنعام: الآية 91.

(أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ)[1] .

إنَّ جهنم في انتظار هؤلاء، تستقبلهم بالويل والثُّبور وعظائم الأمور.. فليس لهم كرامة، وليس لهم سوى العذاب الشديد الأبدي، في نار وقودها الناس والحجارة.. نار تشويهم، وتحرق جلودهم.. كلما نضجت هذه الجلود بدَّلها اللهُ جلوداً أخرى، ليذوقوا العذاب..

يا رب إني مؤمنٌ   أرجوك أن تغفرَ لي
أحب أن تعفو عن   ما قد بدا من زللي
وحبُّ طه واتباعُ الـ   ـحق يحيي أملي
إنني إليه أنتمي   فهبني حسن العمل[1]

• • •

(1) سورة التوبة: الآية 63.

(1) الأبيات للمؤلف.

الكذب والافتراء

الكذب: الإخبار عن الشيء بخلاف الحقيقة.

والافتراء: الكذب، واختلاق الأمور.

فالكذب والافتراء إذاً.. شيء واحد، لا يرضاه الطبع الكريم، وصفة تأباها النفوس الشريفة. وقد يقع المسلم في أخطاءٍ كثيرةٍ ويغضُّ الشرع عنها ويسامح أصحابها إنْ اجترحوها. أما الكذب فليس من صفات المؤمن وهو بعيد عنه كل البعد.

قال تعالى :(فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ)[1].

وروى ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم :

".. وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذَّابا".

" متفق عليه ".

<u>لماذا يكذب الإنسان؟</u> :

إن من أسباب الكذب :

1- ضعف الإيمان: فلو كان الإنسان يعلم علم اليقين أنَّ حياته وأجله ورزقه مقدر عليه، وأنَّ الله تعالى حين خلقه كتب له من ذلك ما أراد.. لم يكذب بل كان صادقاً مع نفسه أولاً، ومع الآخرين ثانياً.

2- الخوف من الأذى : وهذا له علاقة بالسبب الأول.. وقد يقع الإنسان في مأزق، أو يتصرف تصرفاً يشعر بعده أنه تورط.. وما إلى ذلك، فخاف على نفسه وضعفت نفسه، فانجرف إلى الكذب عَلَّهُ ينجو! ولا نجاة من الكذب،وقد قال الأقدمون : إن كان الكذب ينجي فالصدق أنجى.

---

[1] سورة محمد: الآية 21.

3- النفاق: وهو صفة مَن ضعفت أخلاقه أو عَدِمَها فرأى التزلف والتملق أقرب السبل إلى الوصول إلى الهدف، فانزلق في الكذب والافتراء، وحسب أن الطمأنينة والسعادة يحوزها حين يتخلى عن صدْقِه، ويلجأ إلى الافتراء والكذب، فيغوص في أوحالها، ولم يَدْرِ أنه غاص كذلك في نار جهنم.

4- التنصل من التبعات: وهذا دأب الكافرين والمشركين الذين رأوا أن تصديق الرسل يعني الالتزام بعقيدةٍ يجب أن ينافحوا عنها، وشرعٍ يجب عليهم أن يلتزموه في حياتهم، ونمطِ من السلوك لا يقدرون عليه لضعفٍ في نفوسهم وخسارةٍ لمكاسب دنيوية يتمسكون بها ويحاربون الناس عليه.

لماذا لا يجوز على الأنبياء الكذب؟ :

ا- لأن الله تعالى فضَّلهم على عباده واختارهم منهم، فهم النخبة من خلقه أنشأهم على عينه (ولتصنع على عيني) ..(وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ) [1].
عصمهم الله عن الخطأ، وحَبَاهم العلم والمعرفة..
بل إنَّ الله فضَّل بعضهم على بعض: (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)[2] .
(وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً) [3].
2- لأن الأنبياء أصحاب رسالات والرسول مؤتمن.. ولا يكون أميناً إلَّا إذا كان مثال الإنسان الكامل في صفاته، يستطيع أداء الرسالة المكلف بها أداءً صحيحاً.. وكلمة واحدة تزرع الشك في نفوس أتباعه فضلاً عن الآخرين والأعداء المتربصين له، الذين يحصون عليه حركاته وسكناته، ويكيدون له، ويمكرون به.

3- لأنهم قدوة، ولا يكون الإنسان قدوة لغيره إلَّا إذا ملأ عينه، وفرض بتصرفاته وأعماله احترامه له، ولا بد أن تكون شخصية القدوة متكاملة في كل جانب من جوانب الحياة، سامقة كقمم الجبال، ترنو إليها العيون، وتتطلع إليها العقول، وتجِبُ لها القلوب، فتقلدها في أفعالها وأقوالها

---

(1) سورة الأنعام: الآية 86 .
(2) سورة البقرة: الآية 253.
(3) سورة الإسراء: الآية 55.

وإشارتها ولذلك كان الأنبياء الأسوة الحسنة لمن دعوهم، وقد مدح رب العزة رسوله الكريم فقال : (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ) [1].

وزكّى نفسه وسمعه وبصره ولسانه وقلبه وعقله وجعله الرجل الكامل.. لماذا؟!!

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً) [1].

والمتتبع لآيات القرآن الكريم يجد أنه ما من نبي الّا كذّبه قومُه :

(كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ) [2].

(كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ) [3].

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ) [4].

(كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ) [5] .

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ) [6] .

وقد ذكر القرآن تكذيب الأقوام رسلهم جملة واحدة.

(إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب) [7] .

(وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ) [8].

---

(1) سورة القلم: الآية 4.

(1) سورية الاحزاب : الآية 21.
(2) سورة الشعراء : الآية 105
(3) سورة الشعراء: الآية 123.
(4) سورة الشعراء: الآية 141.
(5) سورة الشعراء: الآية 160.
(6) سورة ق: الآية 12.
(7) سورة ص: الآية 14.
(8) سورة ق: الآية 14.

إذاً فما من نبي جاء قومه إلَّا كذبوه.. وكأنهم تواصوا بذلك، ومردوا عليه (فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ) [1] .

ولم يكن الرسول عليه الصلاة والسلام بِدعاً من الرسل فكذبه قومه وآذوه (وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) [2]

ولم يألُ القرآن الكريم أنْ ردّ على افتراءات الكفار وتكذيبهم، بل عضّد موقف النبي صلى الله عليه وسلم، ودافع عنه ووصفه بالصدق، وردَّ على افتراءات الكفار [3].

(وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ) [4].

بل هاجم القرآنُ المفترين المكذبين، وتحداهم أن يأتوا بمثله (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ) [5] .

ولن يستطيعوا لأنه كتاب الله العزيز العليم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

بعض أسباب التكذيب والافتراء :

لو استعرضنا آيات القرآن الكريم، باحثين عن الأسباب التي دعت الناس إلى تكذيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لوقفنا على كثير منها.. ولسنا هنا في صدد إحصائها، إنما نحب أن نلقي ضوءا على أهمها.

ا- الشرك.. فهو الطامَّةُ الكبرى التي تؤدي بصاحبها إلى جهنم وساءت مصيراً، وقبل ذلك إلى غضبِ الله تعالى، فحياة الشرك، والرغبة في البقاء في حمأتها ووحلها تجعل المشرك يكذب الرسول صلى الله عليه وسلم والأنبياء من قبله صلوات الله عليهم (وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً) [1].

2- المكابرة: تؤدي بصاحبها في مستنقع الضلال وحفرة الإشراك والكفر ألم يقل الحكماء " العناد يورث الكفر" والمكابرة تشحن صاحبها أنْ يجد ثغرة للتفلت، وتعميه عن رؤية الحق،

---

(1) سورة الذاريات : الاية 60 .
(2) سورة فاطر : الآية 25.
(3) سورة يونس: الآية 37.
(4) سورة يوسف: الآية 111.
(5) سورة هود: الآية 13.

(1) **سورة النساء : الاية 48.**

وتسول له العناد والتحدي، ورجلٌ هذه صفاته وهذه طريقته في الحياة لا يرى ضياء الإيمان ولا يريد أن يراه فيكذّبُ صاحبه ويتقول عليه الأقاويل :

(بَلَى قَدْ جَاءتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ) [1].

(وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً) [2] .

كما أن الجحود- كما مرَّ معنا- يؤدي إلى التكذيب : (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ) [3].

3- ضعف الأيمان وعدمه: ومن أين لفاقد الشيء أن يشعر بلذته، إن الإيمان إذا لامس شَغاف القلب حرك مشاعره، وأوْقدَ حبه لله ورسوله فصدَّق كتابه وحفظه علماً وعملاً وطبّقه فكان قرآناً يمشي على الأرض، أما فراغ القلب من الإيمان والعقل من التفكر فيورث التكذيب والافتراء: (إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَأُوْلئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ) [4] .

بعض نتائج الافتراء والتكذيب :

إن نتائجها متعددة، وإحصاؤها يستدعي الكثير من الانتباه والتفكر، وإليك أخي المؤمنَ بعضَها، نسأل الله تعالى أن يكتب لنا الإيمان، ويزينه في قلوبنا، ويكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، وأن يجعل خير أعمالنا خواتيمها وخير أيامنا يوم لقائه سبحانه:

1- السقوط في غضب الله ولعنته أبد الآبدين :

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاء الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) [1].

2- العذاب الشديد: والسؤال الاستنكاري :

(وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ[2] بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى) [3] .

---

(1) سورة الزمر : الآية 59.

(2) سورة نوح: الآية 7.

(3) سورة الأنعام: الآية 33.

(4) سورة النحل: الآية 105.

(1) سورة هود : الآية 18.

(2) **يسحتكم : يستأصلكم**

فما أشدَّ هذا العذاب الذي توعده الله الكافرين وما أعظم تدميره الذي لا يُبقي ولا يذر، سببه تكذيب المرسلين والافتراء على الله سبحانه.
(تَاللّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ) [1].

وقد أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم أنه من نوقش الحساب فقد هلك يقول الله تعالى: يا عبدي أرسلت إليك محمداً صلى الله عليه وسلم فلم تؤمن، بل كذّبته ورميته بالافتراء وقلت ما أنزل الله من شيء..خلقت لك العقل تفكر به، فعشت كالأنعام لا تستعمل عقلك إلَّا بما يرضي شهواتك.. وضّحتُ لك الطريق إليَّ، وزرعته بعلامات الأمان، ولوحات التوجيه، لتصل إلى مرضاتي سالماً، وأنرتُه بالشريعة السمحاء تساعدك على الرؤية الواضحة فلا تصطدم بمعوقات الشهوات، وذلَّلْت لك الطريق ومهّدته تمهيداً، فأزلت الجنادل وصغار المثبطات.. فأعرضتَ عن هذا كله، وركبت رأسك، واتبعت سفاسف الأمر فليس لك عندي جزاء سوى النار.. نعوذ بالله من غضبه وسخطه.

3- الكذب على النفس أولاً وخسارة الأنفس :

إن الإنسان حين يكذب يسعى إلى مصلحة نفسه - كما يظن- ويعمل لنفعها فيسلك سبيل الكذب والتكذيب ويسمح لنفسه أن يفتري على الله والناس،

وأول من يكذب عليهم الكذابُ نفسه، فيُضلها ويُرديها في شر أعماله: (انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ) [1] فهو في البداية يعرف نفسه كذاباً، ويعمل لطمس الحقيقة، وعلى مرّ الأيام لا يرى الحقيقة التي طمسها، إنما يرى كذبه نَمَا وطغى حتى ما عاد يرى غيره، فيضِلُّ معتقداً أنه على الحق.. وبذلك يخسر نفسه : (قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ) [2] ومن خسر نفسه فلن يرى خسارة أشد منها، ولا يفلح أبدا (إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ

---

(3) سورة طه : الآية 61.

(1) سورة النحل: الآية 56.

(1) سورة الأنعام: الآية 24.

(2) سورة الأعراف: الآية 53.

عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ) [3]. وكيف يفلح من يكذب على الله، ويكذّب رسوله؟!! (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ)[4].

4- التبكيت والتوبيخ :

يحاسب المكذب الكافر يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، من غير ستر يحجبه عن عيون العباد.. فلا حرمة في الآخرة لمن لم يَرْعَ حرمة الله، ولا كرامة لمن جرح كرامة الرسل والأنبياء، وكذبهم، وشهَّر بهم.. فالعقاب يوم القيامة من جنس العمل.

(وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاء الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) [1] فتنظر إليهم الخلائق لاعنة لهم، متبرئة منهم، ويوبِّخه الله تعالى، والجميع يسمعون، قبل طرحه في النار قائلاً (بَلَى قَدْ جَاءتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (59) وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ) [2] .

ويشتدُّ القرآن في توبيخهم حتى لا يجد الكافر أمامه إلاَّ العذاب والنار الحارقة، فأين المفر من عذاب الله؟! وأين الأمل في الإفلات والنجاة؟! ولعلك تشعر بموقفهم المَهين في هذا التصوير البديع (إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ) [3] وهل يعقل أن يتسع خرم الإبرة لحجم الجمل الضخم؟!! نسأل الله حسن الخاتمة.

بعض طرائف عذاب المكذبين والمفترين في الدنيا :

لئن كان مثوى الكافرين يوم القيامة النار، خالدين فيها أبداً، فإن الله تعالى عجّل لهم العقوبة في الدنيا ليذوقوا العذاب مرتين فيشعروا بطعم مرارة الكفر في آخر عهدهم من الدنيا، وفي الآخرة..

1– فهؤلاء قوم نوح عليهم السلام، حين كفروا أرسل الله تعالى عليهم الطوفان فأغرقهم، فأدخلهم النار (مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَاراً) [1] والعطف بالفاء

---

(3) سورة النحل: الآية 116.

(4) سورة الأنعام: الآية 31.

(1) سورة هود: الآية 18.

(2) سورة الزمر: الآيتان 59، 65.

(3) سورة الأعراف: الآية 40.

(1) سورة نوح: الآية 25.

يدل على الترتيب والتعقيب. فما أن أغرقهم الله حتى أدخلهم النار، فخرجوا من عذاب إلى عذاب.

وهذا فرعون وجيشه، خرج يتبع موسى عليه السلام وقومه ليمنعهم من الفرار بدينهم، وليقتلهم، فابتلعه اليمّ، ثم نجاه الله ببدنه ليكون عبرة للأجيال إلى يومنا هذا.

فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ)[2] .

2- وحين كذبت عادٌ نبيَّها هوداً عليه السلام ، أهلكها بالريح الشديدة الصرصر، أرسلها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية، فلم يبق منهم أحد- في سورة الحاقة- وقد وصف الله تعالى هذا اليوم بأنه (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (19) تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ (20) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ) [1] .

3- وحين كذبت ثمود نبيها صالحاً عليه السلام، أهلكها الله بالطاغية، وهي الصيحة المجاوزة للحد في الشدة، (فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ) [2] ، (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ) [3] ، الله أكبر صيحة واحدة تجعلهم كالعشب اليابس المتفتت من شجر الحظيرة؟!! إنها قوة الله!! وجبروت الله!! وانتقام الله!!

4- أما النبي لوط عليه السلام فإن قومه كانوا مكذبين ضالين يأتون في ناديهم المنكر، ويتّبعون غير سنة الله في الحياة.. شاذين يأتي الرجالُ الرجالَ.. فكان عقابهم الأول أنْ أرسل الله عليهم حاصباً، وهي ريح ترميهم بالحصباء، ثم أمر الملك فقلب المدينة بهم رأساً على عقب (فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا)[1]. وطرائق العذاب في الدنيا كثيرة في هؤلاء الذين كذبوا على الله، وكذّبوا أنبياءه، منها أن ينصر الله المسلمين عليهم، فيعذبهم بأيدي المسلمين، ويتملكهم الخزي في القتل وذلة الأسر والتبعية، (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (14) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ) (2) .

---

[2] سورة الأعراف: الآية 136.

[1] سورة القمر: الآيات 19- 21.

[2] سورة الحاقة: الآية 5.

[3] سورة القمر: الآية 31.

[1] سورة الحجر: الآية 74.

[2] سورة التوبة : الآيتان 14- 15.

[3] سورة الأنفال : الآية 60.

والعدو لا تنكسر شرته، ولا تخضد شوكته، إلَّا بجهاده والاستنفار لقتاله، والتجهز لمحاربته.. ولئن وصف النصارى واليهودُ المسلمين بالإرهاب، لهذه الصفةُ من مناقب الشانئين وسماتهم، ولا يضير المسلمينَ ما يدعيه الأعداء إذ يمدحهم الله عز وجل (وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ) (3) فإرهاب العدو فرض، فرضه الله على المسلمين.

وقد أمرنا الله أن نثخن في الأرض، فهي اللغة التي يفهمها أعداؤنا (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ) [1] بل إن الرسول الكريم يَسُنُّ لنا شريعة نعامل بها أعداءنا الذين يمكرون بنا دائماً، فقد كان من وصيته صلى الله عليه وسلم لأسامة بن زيد حين ولاه قيادة الجيش إلى بلاد الشام، أن ينزل على أعداء الله في عِماية الصبح، وأن يمعن فيهم قتلاً ، وأن يحرقهم بالنار (يحرق بيوتهم)، ومن وصية الصديق رضي الله عنه لأسامة حين شيعه، أن يخفق المقاتلين بالسيف خفقاً، وقد طلب رضي الله عنه إلى أحد قادته في قتال المرتدين أن لا يُبقي على أحد منهم قدِرَ عليه، وأن يحرقهم بالنيران، ويقتلهم كلَّ قِتله.. إن أعداءنا – إن ظهروا علينا– لا يرقبوا في مؤمن إلاً ولا ذمة (إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاء وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ) (2).

....

---

[1] سورة الأنفال : الاية 67.
[2] سورة الممتحنة : الآية 2.

سورة الحِجر

[الآيتان 94، 95]

(فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (94) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ).

الاستهزاء والسخرية :

إن الرسول صلى الله عليه وسلم مكلف بدعوة التوحيد.. وكذلك الأنبياء عليهم الصلوات والسلام عليهم أن يبلغوا رسالات ربهم وأن يوضحوها للناس ويخرجوهم- بإذن ربهم- إلى الصراط المستقيم والمحجة البيضاء ليلُها كنهارها..

والأنبياء والمرسلون لا يكلفون بذلك إلَّا حينما يميل الناس إلى الباطل بشهواتهم، ورغباتهم، وينحرفون إلى فساد العقيدة، وفساد التصور، وفساد التصرف فيعيشون خبطَ عشواء، لا يدرون لِمَ يعيشون؟ ولِمَ خلقوا؟ وهل يبعثون؟ ولماذا يبعثون؟

فإذا كانت هذه حالهم فسدَتْ فطرتُهم، وفساد الفطرة أمر خطير يجعل صاحبه يعيش كالبهائم بل أضل.. فالبهائم لاعقل لها تفكر به، ولا نور في قلبها يدفعانها إلى الهداية.. أما الإنسان إذا فسدت فطرته كان له عقلٌ لا يفكر به، ونورٌ طمس في قلبه، وبصيرة حجبها الران، وطولُ الزمان يصيِّرُه أكثر ضلالاً من البهائم، لأنه أرقى منها مستوى بعقله وقلبه فنزل إلى مستواها بمحض إرادته- وكان يستطيع أن يرتفع- ولئن كانت البهائم مخلوقة هكذا، فلها عذرها، أما هو فقد حفر لنفسه وأساءها فكان أحط منها.

ولأن الكافرين هذه صفاتهم، فإن الرسل وعلى رأسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يصدعون بالتوحيد ويدعون الناس إلى عبادة ربهم يجدون عداوة شديدةً منهم وإيذاءً..وسخريةً واستهزاءً .. وهم يتحملون لأنَّ صاحب الرسالة يعرف سلفاً أن دعوته تجد معارضين من ذوي الأهواء، والمصالح الآنيّة الدنيوية والمفسدين الذين يعيشون متفلتين، لا ضابط يردعهم، ولا مانع يوقفهم، ولا شريعة تضبط تصرفاتهم.. هم يعلمون أن الضياء يتفلت قليلاً من حلكة الظلام، وأن النور يتقدم بطيئاً، لكنهما يثبتان في نفوس الناس بالصبر والحلم والأناة.

ولكنَّ الرسلَ بشرٌ، لهم عواطفهم وقدراتهم في تحمل سماجة السمجين، وبداوة المكذبين وحِلفَ المتكبرين وسخرية الساخرين وهزء الهازئين.. والله تعالى لايتركهم لبشريتهم وضعفهم بل يقوّى أنفسهم ويشدُّ من أزرهم. ويدافع عنهم : (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا..) [1].

روى القرطبي في الجزء العاشر ص 62 في الجامع لأحكام القرآن عن عبد الله بن عبيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا أمِر بالجهر خرج هو وأصحابه غير مبالين بالمشركين معرضين عنهم.

وقال ابن إسحاق: لما تمادوا في الشر، وأكثروا برسول الله صلى الله عليه وسلم الاستهزاء، أنزل الله تعالى (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَر..)ُ [2] الآية، والمعنى أنَّ الله كافيك هؤلاء المشركين المستهزئين، وكانوا خمسة من رؤساء أهل مكة ،

وهم الوليد بن المغيرة وهو رأسهم، والعاصُ بن وائل، والأسود بن المطلب بن أسد أبو زمعة، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن الطلاطلة، أهلكهم الله جميعاً قبل يوم بدر في يوم واحد، لاستهزائهم برسول الله صلى الله عليه وسلم. وسبب هلاكهم فيما ذكر ابن إسحاق: أن جبريل أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يطوفون بالبيت، فقام، وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فمر به الأسود بن المطلب فرمى في وجهه بورقة خضراء فعمي ووجعت عينه فجعل يضرب برأسه الجدار.

ومرّ به الأسود بن عبد يغوث، فأشار جبريل إلى بطنه فاستسقى بطنه فمات حَبَناً " بطنه عظمت بالماء الأصفر"

ومرَّ به الوليد بن المغيرة فأشار إلى أثر جرح بأسفل كعب رجله، وكان أصابه قبل ذلك بسنين وهو يجرُّ سَبَلَهُ (ثوبه المسبل اختيالاً وفخراً) وذلك أنه مرّ برجل من خزاعة يَريش نبلاً له، فعلق سهم من نبله بإزار المغيرة فخدش في رجله ذلك الخدش، وليس بشيء فانتقض به فقتله.

---

[1] سورة الحج : الآية 38.

[2] سورة الحجر : الآية 94.

ومرّ به العاص بن وائل فأشار جبريل إلى أخمص رجله، فخرج على حمار يريد الطائف فربض به على شِبرِقة (نبت حجازي يؤكل، وله شوك) فدخلت في أخمص قدمه شوكة فقتلته.

ومرّ به الحارث بن الطلاطلة، فأشار إلى رأسه فامتخط قيحاً (سال وخرج) فقتله، وذمَّهم إذ قال تعالى : (الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللّهِ إِلهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) (1) .

وقد علم الله تعالى أن الاستهزاء يؤثر في النفس البشرية وأكثر تأثراً به الأنبياء، وأولهم تأثراً سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، فيضيق صدره حزناً وألماً بما يقولون من تكذيب وسخرية، فأمره الله تعالى معلماً ومربياً أن يكثر من التسبيح والصلاة، ليذهب همه وحزنه.

(وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (97) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ) [2] .

وقد كان رسول الله إذا حزبه أمرٌ نادى على مؤذنه بلال قائلاً : " أرحنا بها يا بلال ". وكان يقول عليه الصلاة والسلام وجعلت قرة عيني في الصلاة.

فالصلاة قربٌ من الله، وبُعدٌ عن سفساف الحياة الدنيا، ولجوءُ الضعيف إلى الله القوي، واستمدادُ العون منه والمساعدة، إنها رمز العبودية لله، وهي أقصى الدرجات التي يحلم بها العبد المتقرب من مولاه.

من أفعال المستهزئين الساخرين :

1- تكذيبهم بآيات الله والسخرية بها والاستهزاء بصحتها وصحة مصدرها:

(ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُون) [1] .

وجعلوا التندر بآيات الله تسلية وإزجاء لفراغهم.

(وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُواً) [2] .

2- السخرية من رسول الله وأصحابه والمؤمنين:

---

[1] سورة الحجر : الآية 96.

[2] سورة الحجر : الآيتان 97، 98.

[1] سورة الروم: الآية 10.

[2] سورة الكهف: الآية 56.

إنها المحاربة النفسية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليكف عن دعوته أو يهادنهم، وهيهات هيهات، فالمؤمنُ بقضيةٍ عَشِقَها، وامتزجت بقلبه، وخالطت جسمه، لا يترك دعوته، ولو وضعوا الشمس في يمينه والقمر في يساره ،ولو ملّكوه الأرض وما عليها وأغرقوه بالأموال والشهوات.

(وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً) [3] .

وما من نبي أرسل إلى الكافرين إلّا استهزؤوا به، فهذا دأبهم منذ القديم (يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون) [1] .

3- الاستهزاء والسخرية من الصلاة وأصحابها:

فهم يشيرون إلى المصلين إشارة تدل على قذارة أنفسهم، وخبث مكرهم (وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِبا) [2] ، وهذه الآية وإن كانت في المنافقين فالمنافقون كفّارٌ

يصرحون أنهم يسخرون من المؤمنين، وأنهم مع الكافرين، فهم في خندق واحد ضد المسلمين (قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ) [3] .

وليندمَنَّ الساخرون يوم القيامة حين يرون العذاب على ما فعلوه وما فرَّطوا في جنب الله وليقولُن نادمين حيث لا ينفع الندم، آسفين حين لا ينفع الأسف.

(يَا حَسْرَتَى علَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِين) [4] .

وسيندمون حين يُحيط بهم العذاب، ويعرفون تمام المعرفة، ويتيقنون تمام اليقين أنهم ماكثون في العذاب الأليم (وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) [1] .

---

(3) سورة الفرقان: الآية 41.
(1) سورة يس : الآية 30.
(2) سورة المائدة : الآية 58.
(3) سورة البقرة : الآية 14.
(4) سورة الزمر : الآية 56.

(فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون) [2] .

ولكن ما بال الذين يرون الكفار من أهل الكتاب وغيرهم يسخرون من الدين وأهله، ويصفونه بالرجعية، والبعد عن الحقيقة المعيشية، والحقيقة العلمية؟!! ويتقولون على الله الأقاويل، ويسخرون من المؤمنين، فيصفونهم تارة بالتطرف، –ولا متطرف إلّا من ابتعد عن شرع الله وتطرف عنه– وتارة بالأصولية، ويقصدون التجمد عند النصوص والفهم الخاطىء لها، والأصولية حقيقةً عودة إلى كتاب الله وسنة نبيه، والتزامٌ بالشرع وعملٌ به، فهي إذاً صفة يتمنى جميع المسلمين الواعين أن يتصفوا بها، ما بال هؤلاء المسلمين يتخذون من هؤلاء الذين سخروا منهم ومن دينهم، من أهل الكتاب، والمشركين أولياء.. يتولونهم؟!! ألم يعلموا أن الله نهاهم عن ذلك، فالمسلم متميز عنهم؟!! إن الله يناديهم معلماً ومربياً، ومحذراً ؟!

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) [1] .

بل أمَرَنا مولانا سبحانه أنْ إذا سمعْنا الكفارَ يستهزئون بالدين وشعائره وأهله، أن نسخر منهم ثم لا نجالسهم فليسوا منا ولسنا منهم. فكما أن الله يستهزىء منهم ويسخر، (اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُون) [2] فنحن نسخر منهم ونهزأ، فالرد بمثل الهجوم وأكثر منه أولى بالمؤمنين (إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ) [3] .

وأما أعظم التعبير عن المفاصلة بيننا وبين الكافرين، فقد وضَّح الله تعالى هذه المفاصلة أبْيَنَ الوضوح، فأمر المسلمين أن لا يجالسوهم لأنهم يكونون إذ ذاك مثلهم، وإذا حلت اللعنة عليهم والمسلمون بينهم ساكتون، خرس لا يمتعضون ولا يردون، وكأنهم غير موجودين، فقد تحلُ بهم. ومن كثَّر سوادَ قوم فهو منهم..!!

---

(1) سورة النحل: الآية 34.

(2) سورة الأنبياء: الآية 41.

(1) سورة المائدة : الآية 57.

(2) سورة البقرة : الآية 15.

(3) سورة هود : الآية 38.

(وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً) [1]

هكذا إذاً!! المفاصلة.. ولا يقصد بالمفاصلة عدم التعامل معهم تجاريّاً وعلميّاً.. فلا بد من ذلك فهي الحياة الدنيا تجمع بين الأطراف.. ولكنها المفاصلة في الروح والعقل، المفاصلة في الحب والود، والبغض والكُره، المفاصلة في المعتقد والإيمان، المفاصلة في الأمن والأمان.. فهم أعداء الله ونحن أحباؤه.. ولا اجتماع بين نقيضين..

• • •

(1) سورة النساء: الآية 140.

سورة النحل

[الآية 103]

(وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ ، وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ).

منذ القديم وإلى هذه اللحظة يفتري الكافرون على نبي الإسلام ما يفترون، ويدّعون ما يدّعون، ويرمونه عليه الصلاة والسلام بأن هذا القرآن ليس من الله، وليس من عنده، فقد تعلمه من غيره ..

ومما يضحك له الإنسان– من ألم– أن هذا الادعاء صبياني، لا يقول به عاقل، ومتى كان الكافرون عاقلين، لأن الحجة التي بنوا عليها ادعاءهم تافهة لا وزن لها – كبقية الاتهامات الأخرى– لكن تفاهة هذا الادعاء ناتجة عن أن الصغير لا يقبل بها، ويسخر من سردها.

فقد روى ابن إسحاق أنه كان في مكة فتى أعجميٌّ قُربَ الصفا، يبيع بعض السلع البسيطة، يمر عليه الرسول صلى الله عليه وسلم كما يمر عليه الناس، ويكلمه كما يكلمه الآخرون، ولم يكن هذا الأعجمي ليتكلم من العربية سوى كلماتٍ وجملٍ يكاد لا يبينها ولا يحسن نطقها ادعى كفار مكة أنه علم النبي صلى الله عليه وسلم القرآن والحكمة!!.

وعلى الرغم من أن هذا الادعاء لا وزن له إلا أنه ينبغي أن نشير إليه رادّين على تخرصاتهم :

1– لو كان هذا الغلام ذا حكمة وفهمٍ، ما وضع نفسه في الموضع الذي هو فيه، يمرُّ عليه الجميع من كبارٍ، وصغارٍ، وينظر إليه الكثير منهم نظرة ازدراء.

2– أنَّى لهذا الفتى أن يُعلِّم الرسول صلى الله عليه وسلم القرآن والحكمة، على فرض وجودها عنده، وأداة التعليم واللغة وحسن البيان ليست فيه؟! وفاقد الشيء لا يعطيه.

3- كان أحرى بهذا الأعجمي- الذي اتصف بالعلم والحكمة على حد قول الكفار- أن ينسب القرآن إلى نفسه، فيفخر بذلك على أهل مكة ومن حولها، ويتبوأ فيهم مركز الصدارة، لا خانة النسيان!!

4- لِمَ تكاسل هؤلاء جميعاً فلم يتعلموا منه- إن صح زعمهم- فأفادوا واستفادوا، ونافسوا محمداً صلى الله عليه وسلم في دعوته؟!!.

5- وعلى فرض أنه صلى الله عليه وسلم - حسب ادعاء الكافرين- تعلَّم من ذلك الأعجمي القرآن والحكمة، ثم صاغ ذلك بأسلوب عربي مبين.. أما كان أهل قريش - وهم أفصح العرب- أن يصوغوا الأفكار بقالبٍ سامٍ من البلاغة.. مثلُهم مثَلُ النبي صلى الله عليه وسلم ؟!! لقد تحداهم القرآن أن يأتوا بمثله.. فعجزوا.. وتحداهم أن يأتوا بعشر سورة مثله- مفتريات- فعجزوا.. وتحداهم أن يأتوا بسورة مثله فعجزوا..

أمة مشهورة بالبلاغة والفصاحة يأتيها رجلٌ بكلامٍ من كلامهم ويتحداهم أن يكونوا مثله في حُسن البلاغة والبيان فلا يستطيعون.. وينبهرون حين يقرأ عليهم، وتتلى آياته فيهم، فيصمتون إعجاباً.. أحرى بها أن تصدق أنه كلام الله المنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم..

ولئن اجتمع الماديون الملحدون في روسيا الشيوعية عام أربعة وخمسين وتسع مائةٍ وألف في مؤتمر المستشرقين يدّعون أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من عمل فرد واحد- وهو محمد عليه الصلاة والسلام- بل من عمل جماعة كبيرة، وأنه لا يمكن أن يكون قد كتب في الجزيرة العربية بل إن بعض أجزائه كتب خارجها!!

لَهذا الافتراءُ الجاهليُّ في القرن العشرين الجاهلي!! أقلُّ خطأً من خطأ الجاهليين أهل مكة.. وكل أقوالهم خطأ.. لكنّ جاهليّي القرن العشرين أقرُّوا أنَّ رجلاً واحداً بل إن رجلين أو أكثر لا يستطيعون تأليف كتاب يتضمن قواعد الحياة وأسسها إلى يوم القيامة.. وغاب عن عقول ملاحدة

القرن العشرين أن العالم كلّه ماضيه وحاضره لا يستطيع أن يأتي بمثله أنسهم مع جنّهم.. لأنه كلام الله الذي (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) (1) .

---

(1) سورة فصلت: الآية 42.

سورة الإسراء

[الآيات 90- 93]

(وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً)

قال القرطبي:

نزلت هذه الآيات في رؤساء قريش، مثل عتبة وشيبة ابني ربيعة، وأبي سفيان، والنضر بن الحارث، وأبي جهل، وعبد الله بن أمية، وأمية بن خلف، وأبي البختري، والوليد بن المغيرة.. وغيرهم.

وذلك أنهم لما عجزوا عن معارضة القرآن، ولم يرضَوا به معجزة، وهذا من العناد إذ إنهم حاولوا معارضته، وأنَّى لهم ذلك فهم لا يستطيعون أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.. اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد ﷺ فكلِّموه، وخاصموه، حتى تُعذروا فيه، فبعثوا إليه أنَّ أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليكلموك فأتهم.. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبُّ قومه، ويحرص على هداهم، فجاءهم وهو يظن أنْ قد بدا لهم فيما كلمهم بَدْوٌ.. فقالوا: يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخلَ على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعِبت الآلهة، وشتمت الدين وسفهت الأحلام، وفرقت الجماعة.. فما بقي أمر قبيح الَّا قد جئته !!! وقالوا له كلاماً يدل على جهلهم وسفههم. ثم عرضوا عليه المال الوفير، والزعامة، والشرف والملك، وأجمل النساء وعرضوا عليه الطبَّ إن كان ما يأتيه رئِيًّا من الجن، عرضوا كل هذا ليترك الدعوة إلى الله.. وهذا ما يفعله أعداء الله بالدعاة الآن.. فالطريقة في إبعاد الناس عن الدين واحدة في كل زمان ومكان.. فكان رده صلى الله عليه وسلم ، ردّ الداعية الواثق بدعوته، المؤمن بها، الذي لا يبيعها بعرض من الحياة الدنيا مهما كثر، فما عند الله خير وأبقى..

قال صلى الله عليه وسلم : ما بي ما تقولون، ما جئتُ بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرفَ فيكم، ولا المُلْكَ عليكم.. ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليَّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم.

فلما أجابهم بهذه العبارة القوية، وحدّد لهم هدفه دون خوف أو مواربة، بل كان واضح الحجة بيِّنَ الأفكار، احتدّوا وبدأوا يتنطعون في الحديث يعاجزون، فهذا يقول: إنك لم تقبل منا ما أكرمناك به، أوَ ما علمت يا محمد أنه ليس من الناس أحدٌ أضيقَ بلداً، ولا أقلَّ ماء، ولا أشدَّ عيشاً منا؟! فَسَلْ لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به !! فليُسَيّر عنا هذه الجبال، التي ضيّقت علينا، وليَبْسُط لنا بلادنا، وليخرُق لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام، وليبعث لنا ما مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا قصيَّ بن كلاب، فإنه شيخ صدق، فنسألهم عما تقول، أحقٌّ هو أم باطل، فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك، وعرفنا به منزلتك من الله تعالى، وأنه بعثك رسولاً كما تقول،

فقال لهم صلوات الله عليه وسلامه : ما بهذا بعثت إليكم.. إنما جئتكم من الله تعالى بما بعثني به، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم، قالوا : فإذا لم تفعل هذا لنا، فخذ لنفسك ! سَلْ ربك أن يبعث معك مَلَكاً يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، واسأله أن يجعل لك جِنَاناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة، ويغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق، وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك، إن كنت رسولاً كما تزعم؟!

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنا بفاعل، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعثت بهذا إليكم، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراًَ، قالوا: فاسقط السماء علينا كِسَفاً كما زعمت أنَّ ربك إن شاء فعل، فإنا لن نؤمن لك إلَّا أن تفعل،

فقال صلى الله عليه وسلم : ذلك إلى الله عز وجل إن شاء أن يفعله بكم فعل.

وقالوا: نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله، وقال قائلهم : لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلاً :

وقام عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لما علم من إصرارهم على الكفر.. وقام معه ابن عمته عبد الله بن أبي أمية، فقال: يا محمد، عرض عليك قومك ما عرضوا، فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا منزلتك من الله، فيصدقوك ويؤمنوا بك فلم تفعل ثم سألوك أن تعجِّل لهم بعض العذاب، فلم تفعل، فوالله لا أومن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً، ثم ترقى فيه، وأنا أنظر حتى تأتيها، ثم تأتي بِصَكٍّ معه أربعة ملائكة يشهدون لك ما تقول، وايم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك.

ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله حزيناً، كاسف البال مهموماً مغموماً.

أيُّ بشر هؤلاء الذين يُكذِّبون رسول الله، وهم يعلمون صدقه وأمانته؟!! وهل تفجير ينابيع الأرض أكبرُ من خلق السماء والأرض؟ ؟!! هل إيجاد جنة فيها نخيل وعنب وماء كثير أشدُّ من النظام الكوني الباهر وسباحة الكواكب في السماء بنظام وترتيب، أفلا ينظرون إلى ما حولهم من المخلوقات تدّب على الأرض فيأكلون بعضها ويركبون الآخر، أفلا ينظرون إلى أنفسهم نقد خلقهم الله في أحسن تقويم!!

لقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم لإسعاد البشرية، والأخذ بيدها إلى الأمان والاطمئنان.. إلى الإشراق والنور.. فبدلاً من اتباعه وشكر هذه النعمة يتحدّون ويستكبرون، ويسوء أدبهم؟! بل هذه صفتهم الدائمة، فيسألون أن تنزل عليهم السماء قطعاً قطعاً.. ولو

نزلتْ لما نجا أحد ولهلكوا.. كان حَرِيّاً بهم أن يتذكروا ما فعله الله بأبرهة الحبشي، وما أَمْرُه ببعيد عنهم حين أرسل عليه وعلى جيشه طيراً أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم هشيماً تذروه الرياح، وبقايا جيش مقهور، أيريدون أن يروا الملائكة تأتيهم من السماء؟!! (يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَّحْجُوراً) (1) .

---

(1) سورة الفرقان: الآية 22.

فما جاءت الملائكة إلى الأرض– كما يريدون– إلَّا لنصرة الأنبياء و إبادة المشركين.. فأين هم إذْ تقتعلهم الملائكة وتستأصلهم؟!! أيريدون رؤية الله تعالى؟! وما استوعب الحقيرُ الجليلَ؟!! والصغيرُ الكبيرَ؟!! إن الله تعالى حين تجلى للجبل جعله دكاً، وخرَّ موسى عليه السلام صَعِقاً.. كيف ترى العيون الكليلة والمخلوقات القاصرة نورَ الأنوار، وهو الذي لا يحده زمان ولا يحيط به مكان؟!!.

ما هذه الطلبات وهذه التساؤلات المادية؟! بيت من زخرف، صعود إلى السماء، عودة إلى الأرض! كتاب يُحمل.. أناس يقرؤونه، ملائكة تشهد عليه!!

إن الإيمان تصديق القلب والعقل وعملٌ بالجوارح.. أما التفكير المادي فلم يكن يوماً من الأيام طريقة سليمة إلى الله تعالى..

ولم يكن الرسل في يوم من الأيام سوى بشر مثلنا، أكرمهم الله بالنبوة، وعصمهم بالرسالة، فكانوا هداة مهديين، ينيرون لنا مصابيح الهدى، يؤدّون واجبهم بإخلاص لله تعالى لا تشوبه شائبة، ودأبٌ لا يكلّ ولا يملّ .. وما عليهم إلَّا البلاغ فإن آمن الناس كان حظهم طيباً والَّا فلا يلوموا إلَّا أنفسهم (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ)(1) .

فلا تحزن يا رسول الله صلى الله عليك وعلى آلك وأصحابك.. بلّغتَ الرسالة، وأدَّيتَ الأمانة، ونصحت الأمة، وكشف الله بك الغمة.. ولا تحمل نفسك الهمّ والغمّ (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً) (1) ولكنَّ رحمتك بالناس هي التي تستنفر مشاعرك، ورغبتك في ذبّهم عن النار هدفك الأول والأخير (لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ) (2) .

إنْ جئت ربَّك ترجو منه مغفرةً
فابدأ دعاءَك بالصلاةِ على النبي

---

(1) سورة النساء: الآية 64.

(1) سورة الكهف : الآية 6.

(2) سورة التوبة: الآية 128.

واسألهُ أنْ يحيي فؤادكَ دائماً
فحياةُ قلبكَ بالصلاةِ على النبي

واسأله أنْ يسمو مقامك في الدنى
فَعَلاءُ مجدكَ بالصلاةِ على النبي

واسأله فردوسَ السعادةِ، واللقا
فدخولكَ الفردوسَ من فضلِ النبي

صلَّى عليك اللهُ ما شعَّ الضيا
في كل قلبِ بالصلاة على النبي [3]

---

[3] الأبيات للمؤلف.

سورة النور

[من الآية الحادية عشرة]

حديث الإفك

إن من شناعة الجرم وبشاعته أن يتناول المنافقون بيتَ النبي الكريم وعرضَه الطاهرَ الشريف بالإفك وهو عليه الصلاة والسلام أكرم إنسان على الله، وعِرضُ صاحبه الصديق رضي الله عنه أكرم إنسان على رسول الله- صلى الله عليه وسلم .. وعرضُ رجل من الصحابة صفوان بن المعطل، يشهد رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أنه لم يعرف عليه إلَّا خيراً، هذا الإفك الذي شغل المسلمين في المدينة شهراً كاملاً.. كان هذا الشهر ثقيلاً جداً على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين.. هذا الإفك الذي كاد يعصف بالمجتمع المسلم، لولا فضل الله تعالى الذي أعاد إلى قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم الطمأنينة والسكينة، ولجم أفواه المنافقين ومن انجرف معهم من المسلمين، الذين ثابوا بعد ذلك إلى رشدهم، وعرفوا عظم ما جنوه، في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم وحق أهل بيته الطاهرات..

هذا الحادث.. حادث الإفك قد كلّف أطهر النفوس في تاريخ البشرية كلها آلاماً لا تطاق، وكلّف الأمة المسلمة كلها تجربة من أشق التجارب في تاريخها الطويل- وعلَّقَ قلبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم – وقلبَ زوجته التي يحبها، وقلبَ أبي بكر الصديق وزوجته، وقلبَ صفوان بن المعطل، شهراً كاملاً علَّقها بحبال الشك والقلق، والألم الذي لايطاق.

فلندع عائشة رضي الله عنها تروي قصة هذا الألم، وتكشف عن سر هذه الآيات.

عن الزهري عن عروة وغيره عن عائشة- رضي الله عنها- قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهنَّ خرج سهمُها خرج بها معه؛ وإنه أقرع بيننا في

غزاة[1] فخرج سهمي، فخرجت معه بعد ما أنزل الحجاب، وأنا أُحمل في هودج، وأنزل فيه. فسِرنا حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته تلك، وقفل، ودنونا من المدينة

آذن ليلةً بالرحيل؛ فقمت حين آذنوا بالرحيل، حتى جاوزت الجيش. فلما قضيت من شأني أقبلت إلى الرحل، فلمست صدري، فإذا عِقدٌ لي من جزع أظفار قد انقطع، فرجعت فالتمسته فحبسني ابتغاؤه ؛ وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونني، فاحتملوا هودجي، فرحلوه على بعيري، وهم يحسبون أنّي فيه؛ وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلهنّ اللحم؛ وإنما نأكل العلقة من الطعام؛ فلم يستنكر القوم حين رفعوه خفةَ الهودج، فحملوه؛ وكنت جارية حديثة السن؛ فبعثوا الجمل وساروا،

فوجدت عقدي، بعدما استمر الجيش، فجئت منزلهم، وليس أحد منهم، فتيممت منزلي، الذي كنت فيه. وظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إلي؛ فبينما أنا جالسة غلبتني عيناي فنمت.

وكان صفوانُ بن المعطل السُّلَميُّ. ثم الذكوانيُّ. قد عرس وراء الجيش، فأدلج، فأصبح عند منزلي؛ فرأى سواد إنسان نائم فأتاني فعرفني حين رآني. وكان يراني قبل الحجاب. فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمَّرت وجهي بجلبابي؛ والله ما يكلمني بكلمة، ولا سمعت منه كلمة غيرَ استرجاعه؛ وهوى حتى أناخ راحلته، فوطىء على يديها، فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيش، بعدما نزلوا معرِّسين. قالت: فهلك في شأني من هلك. وكان الذي تولى كبر الإثم عبد الله بن أبي بن سلول؛

فقدمنا المدينة؛ فاشتكيت بها شهراً؛ والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك ولا أشعر. وهو يَريبني في وجعي أنّي لا أرى من النبي صلى الله عليه وسلم اللطفَ الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل فيسلم ثم يقول: كيف تيكم؟ ثم ينصرف. فذلك الذي يريبني منه، ولا أشعر بالشرِّ حتى نقهت، فخرجت أنا وأمُّ مِسطَح قِبَل المناصع- وهو متبرزناً- وكنا لا نخرج إلَّا ليلاً إلى ليل وذلك قبل أن نتخذ الكنُفَ، وأمرُنا أمْرُ العرب الأول في التبرز قبل الغائط. فأقبلت أنا وأم مسطح- وهي ابنة أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف وأمها بنت صخر بنِ عامر خالةُ أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وابنها مسطح بنُ أثاثة بن عباد بن المطلب- حين فرغنا من شاننا

---

[1] غزوة بني المصطلق في السنة الخامسة الهجرية على الأرجح.

نمشي، فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت: تعس مسطح فقلت لها: بئسما قلت. أتسبين رجلاً شهد بدراً ؟ – فقالت: يا هِنتاه ألم تسمعي ما قال؟ فقلت: وما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً إلى مرضي. فلما رجعت إلى بيتي دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: كيف تيكم؟ فقلت: ائذن لي أن آتي أبويَّ. وأنا حينئذٍ أريد أن أستيقن الخبرَ من قِبَلِهما. فأذن لي، فأتيت أبويَّ، فقلت لأمي: ياأمتاه ماذا يتحدث الناس به؟ فقالت يا بنيةُ هوِّني على نفسك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأةٌ قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلَّا أكثرن عليها. فقلت: سبحان الله! ولقد تحدث الناس بهذا ؟ قالت: فبكَيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يَرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم. ثم أصبحتُ أبكي. فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد رضي الله عنهما حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله. قالت: فأمّا أسامةُ فأشار عليه بما يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه من الود لهم. فقال أسامة: هم أهلك يا رسول الله، ولا نعلم والله إلَّا خيراً. وأمّا علي بن أبي طالب فقال: يا رسول الله لم يضيقِ الله عليك، والنساء سواها كثير، وسل الجارية تخبرك. قالت: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة [1] فقال لها: أيْ بريرة. هل رأيت فيها شيئاً يَريبك؟ فقالت: لا والذي بعثك بالحق نبياً إن رأيتُ منها أمراً أغمصه [2] عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن [1] فتأكله. قالت: فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه، واستعذر من عبد الله بن أبي بن سلول. فقال وهو على المنبر: من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي؟ فوالله ما علمت على أهلي إلَّا خيراً. ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلَّا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلَّا معي. قالت: فقام سعد بن معاذ [2] رضي الله عنه فقال: يا رسول الله أنا والله أعذرك منه. إن كان من

---

[1] حقق الإمام شمس الدين أبو عبد الله بن قيم الجوزية أن الجارية التي سئلت لم تكن هي بريرة، لأن بريرة إنما كاتبت وأعتقت قبل هذا بمدة طويلة، إنما قال الإمام علي كرم الله وجهه: فسل الجارية تخبرك فظن بعض الرواة أنها بريرة فسماها.

[2] أغمصه: أعيبه.

[1] الداجن: الشاة في البيت.

[2] في رواية ابن إسحاق أن الذي قال هذا وذلك هو أسيد بن حضير. وحقق الإمام–ابن قيم الجوزية في زاد المعاد أن سعد بن معاذ كان قد توفي بعد غزوة بني قريظة قبل حديث الإفك،

الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك. فقام سعد بن عبادة رضي الله عنه، وهو سيد الخزرج، وكان رجلاً صالحاً ولكنْ أخذته الحمية. فقال لسعد بن معاذ: كذبت لعمر الله، لا تقتله ولا تقدر على ذلك. فقام أسيد بن حضير رضي الله عنه، وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنّه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين. فثار الحيّان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله–صلى الله عليه وسلم على المنبر، فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا ونزل. وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم. ثم بكيت ليلتي المقبلة لايرقا لي دمع ولا أكتحل بنوم. فاصبح أبواي عندي، وقد بكيت ليلتين

ويوماً، أظن أن البكاء فالق كبدي. فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي إذ استأذنت امرأة من الأنصار، فأذنتُ لها، فجلست تبكي معي. فبينما نحن كذلك إذ دخل علينا رسول صلى الله عليه وسلم ، ثم جلس، ولم يجلس عندي من يوم قيل فيَّ ما قيل قبلها، وقد مكث شهراً لايوحى إليه في شأني بشيء، فتشهد حين جلس، ثم قال: " أما بعد فإنه بلغني عنك كذا وكذا. فإن كنت بريئة فسيبرئك الله تعالى، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله تعالى وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب، تاب الله تعالى عليه ". فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعي حتى ما أحسُّ منه بقطرة. فقلت لأبي: أجب عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال. قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال. قالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلمز قالت: وأنا جارية حديثة السنِّ لا أقرأ كثيراً من القرآن، فقلت: إني والله أعلم أنكم سمعتم حديثاً تحدث الناس به، واستقر في نفوسكم، وصدقتم به. فلئن قلت لكم إني بريئة لا تصدقوني بذلك. ولئن اعترفت لكم بأمرٍ، والله يعلم أني منه بريئة، لتصدقُنَّني. فوالله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف إذ قال: (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) [1] . ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، وأنا والله حينئذٍ أعلم أني بريئة، وأن الله تعالى مبرئي ببراءتي. ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل الله تعالى في شأني وَحْياً يتلى؛ ولشأني في نفسي كان أحقرَ من أن

وأن الذي قال ما قيل هو أسيد بن حضير، وكذلك قال الإمام ابن حزم مستشهداً برواية عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن عائشة وليس فيها ذكر سعد بن معاذ.

[1] **سورة يوسف: الآية 18.**

يتكلم الله تعالى فيّ بأمر يتلى؛ ولكن كنت أرجو أن يرى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يبرئني الله تعالى بها. فوالله ما رام مجلسه، ولا خرج أحد من أهل البيت، حتى أنزل الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم، فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاء، فسُرِّيَ عنه، وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال لي: يا عائشة احمدي الله تعالى فإنه قد برأك. فقالت لي أمي: قومي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقلت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلَّا الله تعالى، هو الذي أنزل براءتي. فانزل الله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ..) (1) " العشر الآيات". فلما أنزل الله تعالى هذا في براءتي قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه– وكان ينفق على مسطح بن أثاثة

لقرابته منه وفقره– والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعدما قال لعائشة رضي الله عنها. فانزل الله تعالى: (وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن..) إلى قوله: (وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (2) فقال أبو بكر رضي الله عنه: بلى والله لأحب أن يغفر الله لي، فرَجع إلى مسطح النفقةَ التي كان يُجري عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً.

قالت عائشة رضي الله عنها: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلمسأل زينب بنت جحش عن أمري، فقال: " يا زينب. ما علمت وما رأيت؟ " فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت عليها إلَّا خيراً. وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فعصمها الله تعالى بالورع. قالت: فطفقت أختها حمنة تحارب لها، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك (3).

وتعالَ نعِشْ– أخي الحبيب – في ظلال هذه القصة بقلم الشهيد الأستاذ سيد قطب إذ يقول في تفسير آياتها في سورة النور ما يلي:

وهكذا عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهلُ بيته. وعاش أبو بكر رضي الله عنه وأهل بيته. وعاش صفوان بن المعطل.وعاش المسلمون جميعاً هذا الشهر كله في مثل هذا الجو الخانق، وفي ظل تلك الآلام الهائلة، بسبب حديث الإفك الذي نزلت فيه تلك الآيات.

---

(1) **سورة النور: الآية 11.**

(2) **سورة النور: الآية 22.**

(3) **قال ابن شهاب: فهذا ما انتهى إلينا من أمر هؤلاء الرهط، أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث الزهري=**

وإن الإنسان ليقف متململاً أمام هذه الصورة الفظيعة لتلك الفترة الأليمة في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وأمام تلك الآلام

العميقة اللاذعة لعائشة، زوجه المقربة. وهي فتاة صغيرة في نحو السادسة عشرة. تلك السن المليئة بالحساسية المرهفة والرفرفة الشفيفة. فها هي ذي عائشة الطيبة الطاهرة. ها هي ذي في براءتها ووضاءة ضميرها، ونظافة تصوراتها، ها هي ذي تُرمي في أعز ماتعتز به. تُرمى في شرفها. وهي ابنة الصديق الناشئة في العش الطاهر الرفيع. وترمى في أمانتها. وهي زوج محمد بن عبد الله من ذروة بني هاشم.

وترمى في وفائها. وهي الحبيبة المدللة القريبة من ذلك القلب الكبير.. ثم ترمى في إيمانها. وهي المسلمة الناشئة في حجر الإسلام، من أول يوم تفتحت عيناها فيه على الحياة. وهي زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ها هي ذي ترمى، وهي بريئة غارَّة غافلة، لا تحتاط لشيء، ولا تتوقع شيئاً؟ فلا تجد ما يبرئها إلَّا أن ترجو في جناب الله، وتترقب أن يرى رسول الله رؤيا، تبرئها مما رميت به. ولكن الوحيَ يتلبث، لحكمة يريدها الله، شهراً كاملاً، وهي في مثل هذا العذاب. ويا لله لها وهي تفاجأ بالنبأ من أم مسطح. وهي مهدودة من المرض، فتعاودها الحمى؛ وهي تقول لأمها في أسى: سبحان الله! وقد تحدث الناس بهذا؟ وفي رواية أخرى تسأل: وقد علم به أبي؟ فتجيب أمها: نعم!

فتقول: ورسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فتجيبها أمها كذلك: نعم!.

ويالله ورسول الله ﷺ نبيها الذي تؤمن به ورجلها الذي تحبه، يقول لها: " أما بعد فإنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله تعالى، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله تعالى وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه ".. فتعلم أنه شاكٌّ فيها، لا يستيقن من طهارتها، ولا يقضي في تهمتها. وربُّه لم يخبره بعد، ولم يكشف له عن برائتها التي تعلمها ولكن لاتملك إثباتها؛ فتُمسي وتصبح وهي تهمة في ذلك القلب الكبير الذي أحبها، وأحلّها في سويدائه!.

وها هو ذا أبو بكر الصديق في وقاره وحساسيته وطيب نفسه يلذعه الألم، وهو يُرمى في عرضه. في ابنته زوج محمدٍ صاحبه الذي يحبه ويطمئن إليه، ونبيه الذي يؤمن به ويصدقه تصديق القلب المتصل، لا يطلب دليلاً من خارجه.. وإذا الألم يفيض على لسانه، وهو الصابر المحتسب القوي على الألم، فيقول: والله ما رمينا بهذا في جاهلية. أفنرضى به في الإسلام؟ وهي كلمة تحمل من المرارة ما تحمل. حتى إذا قالت له ابنته المريضة المعذبة: أجب عني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال في مرارة هامدة: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم!.

وأم رومان زوج الصديق رضي الله عنهما وهي تتماسك أمام ابنتها المفجوعة في كل شيء. المريضة التي تبكي حتى تظن أن البكاء فالقٌ كبِدها: يا بنية هوِّني على نفسك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلَّا أكثرن عليها.. ولكن هذا التماسك يتزايل وعائشة تقول لها: أجيبي عني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتقول كما قال زوجها من قبل: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم! .

والرجل المسلم الطيب الطاهر المجاهد في سبيل الله صفوان بن المعطل. وهو يرمى بخيانة نبيه في زوجه. فيُرمى بذلك في إسلامه، وفي أمانته، وفي شرفه، وفي حميته. وفي كل ما يعتز به صحابي، وهو من ذلك كله بريء. وهو يفاجأ بالاتهام الظالم وقلبُه بريء من تصوره،

فيقول: سبحان الله! والله ما كشفت كتف أنثى قط. ويعلم أن حسان بن ثابت يروج لهذا الإفك عنه، فلا يملك نفسه أن يضربه بالسيف على رأسه ضربة تكاد تودي به. ودافعه إلى رفع سيفه على امرئ مسلم، وهو منهِيٌّ عنه، أن الألم قد تجاوز طاقته، فلم يملك زمام نفسه الجريح!.

ثم ها هو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو رسول الله، وهو في الذروة من بني هاشم.. ها هو ذا يُرمى في بيته. وفي من؟ في عائشة التي حلّت من قلبه في مكان الابنة والزوج والحبيبة. وها هو ذا يُرمى في طهارة فراشه، وهو الطاهر الذي تفيض منه الطهارة. وها هو ذا يُرمى في صيانة حرمته، وهو القائم على الحرامات في أمته. وها هو ذا يُرمى في حياطة ربه له، وهو الرسول المعصوم من كل سوء. ها هو صلى الله عليه وسلم يُرمى في كل شيء حين يرمى في عائشة رضي الله عنها، يرمى في فراشه وعِرضه، وقلبه ورسالته. يرمى في كل ما يعتز به عربي، وكل ما يعتز به نبي.. هاهو ذا يرمى في هذا كله؛ ويتحدث الناس به في المدينة

شهراً كاملاً، فلا يملك أن يضع لهذا كلّه حداً. والله يريد لحكمةٍ يراها أن يدع هذا الأمر شهراً كاملاً لا يبين فيه بياناً.

ومحمد الإنسان يعاني ما يعانيه الإنسان في هذا الموقف الأليم. يعاني من العار، ويعاني فجيعة القلب؛ ويعاني فوق ذلك الوحشة المؤرقة. الوحشة من نور الله الذي اعتاد أن ينير له الطريق.. والشك يعمل في قلبه مع وجود القرائن الكثيرة على براءة أهله، ولكنه لا يطمئن نهائياً إلى هذه القرائن ،والفريةُ تفوح في المدينة، وقلبه الإنساني المحب لزوجه الصغيرة يتعذب بالشك؛ فلا يملك أن يطرد الشك. لأنه في النهاية بشر، ينفعل في هذا انفعالات البشر. وزوج لا يطيق أن يمس فراشه. ورجل تتضخم بذرة الشك في قلبه متى استقرت، ويصعب عليه اقتلاعها دون دليل حاسم.

وها هو ذا يثقل عليه العبء وحده، فيبعث إلى أسامة بن زيد. حبه القريب إلى قلبه.. ويبعث إلى علي بن أبي طالب. ابن عمه وسنده. يستشيرهما في خاصة أمره. فأما علي فهو من

عصب محمد، وهو شديد الحساسية بالموقف لهذا السبب. ثم هو شديد الحساسية بالألم والقلق اللذين يعتصران قلب محمد، ابن عمه وكافله ،فهو يشير بان الله لم يضيق عليه. ويشير مع هذا بالتثبت من الجارية ليطمئن قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويستقر على قرار. وأما أسامة فيدرك ما بقلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الود لأهله، والتعب لخاطر الفراق، فيشير بما يعلمه من طهارة أم المؤمنين، وكذب المفترين الأفاكين.

ورسول الله ﷺ في لهفة الإنسان، وفي قلق الإنسان يستمد من حديث أسامة، ومن شهادة الجارية مدداً وقوة يواجه بهما القوم في المسجد، فيستعذر ممن نالوا عرضه، ورموا أهله، ورموا رجلاً من فضلاء المسلمين لا يعلم أحد عليه من سوء. فيقع بين الأوس والخزرج ما يقع من تناور

وهم في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ويدل هذا على الجو الذي كان يظلل الجماعة المسلمة في هذه الفترة الغريبة، وقد خُدِشت قداسة القيادة.

ويحز هذا في نفس الرسولصلى الله عليه وسلم، والنور الذي اعتاد أن يسعفه لا ينير له الطريق! فإذا هو يذهب إلى عائشة نفسها، يصارحها بما يقول الناس؟ ويطلب منها هي البيان الشافي المريح!

وعندما تصل الآلام إلى ذروتها على هذا النحو يتعطف عليه ربه، فيتنزل القرآن ببراءة عائشة الصديقة الطاهرة؟ وبراءة بيت النبوة الطيب الرفيع؛ ويكشف المنافقين الذين حاكوا هذا الإفك، ويرسم الطريق المستقيم للجماعة المسلمة في مواجهة مثل هذا الشأن العظيم.

ولقد قالت عائشة عن هذا القرآن الذي تنزل: " وأنا والله أعلم حينئذٍ أني بريئة، وأن الله تعالى مبرئى ببراءتي. ولكني والله ما كنت أظن أن ينزل الله تعالى في شأني وحياً يتلى. ولشأني في نفسي كان أحقرُ من أن يتكلم الله فيّ بأمر يتلى. ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يبرئني الله تعالى بها "..

ولكن الأمر – كما يبدو من ذلك الاستعراض– لم يكن أمرَ عائشة رضي الله عنها، ولا قاصراً على شخصها. فلقد تجاوزها شخص الرسول صلى الله عليه وسلم ووظيفته في الجماعة يومها. بل تجاوز إلى صلته بربه ورسالته كلها. وما كان حديث الإفك رمية لعائشة وحدها، إنما كان رمية للعقيدة في شخص نبيها وبانيها..

من أجل ذلك أنزل الله القرآن ليفصل في القضية المبتدعة، ويرد المكيدة المدبرة، ويتولى المعركة الدائرة ضد الإسلام ورسول الإسلام؛ عن الحكمة العليا وراء ذلك كله؛ وما يعلمها إلَّا الله:

(إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ)[1] .

فهم ليسوا فرداً ولا أفراداً إنما هم " عصبة " متجمعة ذات هدف واحد. ولم يكن عبد الله بن أبي بن سلول وحده هو الذي ذلك أطلق الإفك. إنما هو الذي تولى معظمه. وهو يمثل عصبة اليهود أو المنافقين، الذين عجزوا عن حرب الإسلام جهرة؛ فتواروا وراء ستار الإسلام ليكيدوا للإسلام خفية. وكان حديث الإفك إحدى مكائدهم القاتلة.

ثم خدع فيها المسلمون فخاض منهم من خاض في حديث الإفك كحمنة بنت جحش؛ وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة. أما أصل التدبير فكان عند تلك العصبة، وعلى رأسها ابن سلول، الحذر الماكر، الذي لم يظهر بشخصه في المعركة. ولم يقل علانية ما يؤخذ به، فيقاد إلى الحد. إنما كان يهمس به بين ملئه الذين يطمئن إليهم، ولا يشهدون عليه. وكان التدبير من المهارة والخبث بحيث أمكن أن تُرجَف به المدينة شهراً كاملاً، وأن تتداولهُ الألسنة في أطهر بيئة وأتقاها!.

وقد بدأ السياق ببيان تلك الحقيقة ليكشف عن ضخامة الحادث، وعمق جذوره، وما وراءه من عصبة تكيد للإسلام والمسلمين هذا الكيد الدقيق العميق اللئيم. ثم سارع بتطمين المسلمين من عاقبة هذا الكيد: (لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ) (1) .

خيرٌ .. فهو يكشف عن الكائدين للإسلام في شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بيته. وهو يكشف للجماعة المسلمة عن ضرورة تحريم القذف، وأخذ القاذفين بالحد الذي فرضه الله؛ ويبين مدى الأخطار التي تحيق بالجماعة لو أطلقت فيها الألسنة تقذف المحصنات الغافلات المؤمنات.

فهي عندئذٍ لا تقف عند حدٍ. إنما تمضي صعداً إلى أشرف المقامات، وتتطاول إلى أعلى الهامات، وتعدم الجماعة كل وقاية وكل تحرج وكل حياء.

وهو خير أن يكشف الله للجماعة المسلمة بهذه المناسبة عن المنهج القويم في مواجهة مثل هذا الأمر العظيم.

أما الآلام التي عاناها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بيته والجماعة المسلمة كلها، فهي ثمن تجربة، وضريبة الابتلاء، الواجبة الأداء !. أما الذين خاضوا في الإفك، فلكل منهم بقدر نصيبه من تلك الخطيئة: (لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ..) ولكل منهم نصيبه من سوء

[1] **سورة النور: الآية 11.**

[1] **سورة النور: الآية 11.**

العاقبة عند الله. ما اكتسبوا، فهو إثم يعاقبون عليه في حياتهم الدنيا وحياتهم الأخرى (الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ)[1] يناسب نصيبه من ذلك الجرم العظيم.

والذي تولى كِبْرَهُ، وقاد حملته، واضطلع منه بالنصيب الأوفى، كان هو عبد الله بن أبي بن سلول. رأس النفاق، وحامل لواء الكيد. ولقد عرف كيف يختار مقتلاً، لولا أن الله كان من ورائه محيطاً، وكان لدينه حافظاً، ولرسوله عاصماً، وللجماعة المسلمة راعياً..

ولقد روي أنه لما مرَّ صفوان بن المعطل بهودج أم المؤمنين وابنُ سلول في ملأ من قومه قال: من هذه؟ فقالوا: عائشة رضي الله عنها.. فقال: والله ما نجت منه ولا نجا منها. وقال: امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت؛ ثم جاء يقودها!. وهي قولة خبيثة راح يذيعها عن طريق عصبة النفاق بوسائل ملتوية. بلغ من خبثها أن تموج المدينة من الفرية التي لا تصدق، والتي تكذبها القرائن كلها. وأن تلوكها ألسنة المسلمين غير متحرجين. وأن تصبح موضوع أحاديثهم شهراً كاملاً. وهي الفرية الجديرة بان تنفى وتستبعد للوهلة الأولى.

وإن الإنسان ليدهش حتى اليوم كيف أمكن أن تروج فرية ساقطة كهذه في جو الجماعة المسلمة. حينذاك، وأن تحدث هذه الآثار الضخمة في جسم الجماعة، وتسبب هذه الآلام القاسية لأطهر النفوس وأكبرها على الإطلاق!.

لقد كانت معركة خاضها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخاضتها الجماعة المسلمة يومذاك. وخاضها الإسلامُ معركةً ضخمة لعلها أضخم المعارك التي خاضها رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج منها منتصراً كاظماً لآلامه الكبار، محتفظاً بوقار نفسه وعظمة قلبه وجميل صبره. فلم تؤثر عنه كلمة واحدة تدل على نفاد صبره وضعف احتماله. والآلام التي تناوشه لعلها أعظم الآلام التي مرت به في حياته. والخطر على الإسلام من تلك الفرية من أشد الأخطار التي تعرض لها تاريخه.

ولو استشار كل مسلم قلبَه يومها لأفتاه؛ ولو عاد إلى منطق الفطرة لهداه. والقرآن الكريم يوجه المسلمين إلى هذا النهج في مواجهة الأمور، بوصفه أول خطوة في الحكم عليها:

(لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ) (1) .

نعم كان هذا هو الأولى.. أن يظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً. وأن يستبعدوا سقوط أنفسهم في ظل هذا الحمأة.. وامرأة نبيهم الطاهرة وأخوهم الصحابي المجاهد هما من أنفسهم.

---

[1] **سورة النور: الآية 11.**

[1] **سورة النور: الآية 12.**

فظن الخير بهما أولى. لكن ما لا يليق بهم لا يليق بزوج رسول الله ﷺ ولا يليق بصاحبه الذي لم يعلم عنه إلَّا خيراً..

كذلك فعل أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري وامرأته رضي الله عنهما كما روى الإمام محمد بن إسحاق: أن أبا أيوب قالت له امرأته أمُّ أيوب: يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس في عائشة رضي الله عنها؟ قال: نعم. وذلك الكذبُ. أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله ما كانت لأفعله. قال فعائشة والله خير منك.. ونقل الإمام محمود بن عمر الزمخشري في تفسيره: " الكشاف " أن أبا أيوب الأنصاري قال لأم أيوب: ألا ترين ما يقال؟ فقالت: لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم سوءاً؟

قال: لا. قالت: ولو وكنت أنا بدل عائشة رضي الله عنها

ما خنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعائشة خير مني، وصفوان خير منك..

وكلتا الروايتين تدلان على أن بعض المسلمين رجع إلى نفسه واستفتى قلبه، فاستبعد أن يقع ما نسب إلى عائشة، وما نسب إلى رجل من المسلمين: من معصية لله وخيانة لرسوله، وارتكاس في حمأة الفاحشة، لمجرد شبهة لا تقف للمناقشة!.

هذه هي الخطوة الأولى في المنهج الذي يفرضه القرآن لمواجهة الأمور. خطوة الدليل الباطني الوجداني.

فأما الخطوة الثانية فهي طلب الدليل الخارجي والبرهان الواقعي :

(لَوْلَا جَاؤُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاء فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ) (1) وهذه الفرية الضخمة التي تتناول أعلى المقامات، وأطهر الأعراض، ما كان ينبغي أن تمر هكذا سهلة هينة؛ وأن تشيع هكذا دون تثبت ولا بينة؛ وأن تتقاذفها الألسنة وتلوكها الأفواه دون شاهد ولا دليل: " لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء! " وهم لم يفعلوا فهم كاذبون إذن. كاذبون عند الله الذي لا يُبدَّل القول لديه، والذي لا يتغير حكمه، ولا يتبدل قراره. فهي الوصمة الثابتة الصادقة الدائمة التي لا براءة لهم منها، ولا نجاة لهم من عقابها.

هاتان الخطوتان: خطوة عرض الأمر على القلب واستفتاء الضمير. وخطوة التثبت بالبينة والدليل غفَلَ عنهما المؤمنون في حادث الإفك؛ وتركوا الخائضين يخوضون في عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أمر عظيم لولا لطفُ الله لمسَّ الجماعة كلها البلاءُ العظيم. فالله يحذرهم أن يعودوا لمثله أبداً بعد هذا الدرس الأليم:

(لَوْلَا جَاؤُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاء فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ) [1] .

---

[1] **سورة النور: الآية 13.**

لقد احتسبها الله للجماعة المسلمة الناشئة درساً قاسياً. فأدركهم بفضله ورحمته ولم يمسهم بعقابه وعذابه. فهي فعلة تستحق العذاب العظيم. الذي يتناسب مع العذاب الذي سببوه للرسول صلى الله عليه وسلم وزوجه وصديقه وصاحبه الذي لا يعلم عليه إلَّا خيراً. والعذاب الذي يتناسب مع الشر الذي ذاع في الجماعة المسلمة وشاع؛ ومس كل المقدسات التي تقوم عليها حياة الجماعة، والعذاب الذي يناسب خبث الكيد الذي كادته عصبة المنافقين للعقيدة لتقتلعها من جذورها حين تزلزل ثقة المؤمنين بربهم ونبيهم وأنفسهم طوال شهر كامل، حافل بالقلق والقلقلة والحيرة بلا يقين! ولكن فضل الله تدارك الجماعة الناشئة، ورحمته شملت المخطئين، بعد الدرس الأليم.

والقرآن يرسم صورة لتلك الفترة التي أفلت فيها الزمام؛ واختلت فيها المقاييس، واضطربت فيها القيم، وضاعت فيها الأصول:

(إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ) [1]

وهي صورة فيها الخفة والاستهتار وقلة التحرج، وتناول أعظم الأمور وأخطرها بلا مبالاة ولا اهتمام:" إذ تلقونه بألسنتكم "، (لسان يتلقى عن لسان) بلا تدبر ولا فحص ولا إنعام نظر. حتى لكأن القول لا يمر على الآذان، ولا تتملاه الرؤوس، ولا تتدبره القلوب! "وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ".. بأفواهكم لا بوعْيِكم ولا بقلبكم. إنما هي كلمات تقذف بها افواه، قبل أن تستقر في المدارك، وقبل أن تتلقاها العقول..

" وتحسبونه هيناً " أن تقذفوا عرض رسول الله، وأن تدعوا الألم يعصر قلبه وقلب زوجه وأهله؛ وأن تلوثوا بيت الصديق الذي لم يُرْمَ في الجاهلية؛ وأن تتهموا صحابياً مجاهداً في سبيل الله. وأن تمسوا عصمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصلته بربه، ورعاية الله له.. "وتحسبونه هيناً.. " " وهو عند الله عظيم ".. وما يعظم عند الله إلَّا الجليل الضخم الذي تزلزل له الرواسي، وتضج منه الأرض والسماء.

ولقد كان ينبغي أن تجفل القلوب من مجرد سماعه، من مجرد النطق به، وأن تُنكر أن يكون هذا موضعاً للحديث؛ وأن تتوجه إلى الله تنزهه عن أن يدع نبيه لمثل هذا؛ وأن تقذف بهذا الإفك بعيداً عن ذلك الجو الطاهر الكريم:

(وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ) [1] .

---

[1] **سورة النور: الآية 13.**

[1] **سورة النور: الآية 15.**

وعندما تصل هذه اللسمة إلى أعماق القلوب فتهزها هزاً؛ وهي تطلعها على ضخامة ما جنت وبشاعة ما عملت.. عندئذٍ يجيء التحذير من العودة إلى مثل هذا الأمر العظيم:
(يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) [2]

" يعظكم ".. في اسلوب التربية المؤثر. في أنسب الظروف للسمع والطاعة والاعتبار. مع تضمين اللفظ معنى التحذير من العودة إلى مثل ما كان: " يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً".. ومع تعليق إيمانهم على الانتفاع بتلك العظة: "إن كنتم مؤمنين".. فالمؤمنون لا يمكن أن يكشف لهم عن بشاعة عمل كهذا الكشف. وأن يحذروا منه مثل هذا التحذير، ثم يعودوا إليه وهم مؤمنون:

" ويبين الله لكم الآيات ".. على مثال مابين في حديث الإفك، وكشف عما وراءه من كيد؛ وما وقع فيه من خطايا وأخطاء: "والله عليم حكيم " يعلم البواعث والنوايا والغايات والأهداف؛ ويعلم مداخل القلوب. ومسارب النفوس. وهو حكيم في علاجها. وتدبير أمرها. ووضع النظم والحدود التي تصلح بها..

* * *

ثم يمضي في التعقيب على حديث الإفك؛ وما تخلف عنه من آثار؛ مكرراً التحذير من مثله. مذكراً بفضل الله ورحمته، متوعداً من يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات بعذاب الله في الآخرة. ذلك مع تنقية النفوس من آثار المعركة؛ وإطلاقها من ملابسات الأرض، وإعادة الصفاء إليها والإشراق.. كما تتمثل في موقف أبي بكر رضي الله عنه من قريبه مسطح بن أثاثة الذي خاض في حديث الإفك مع من خاض:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) (1) .

والذين يرمون المحصنات– وبخاصة أولئك الذين تجرأوا على رمي بيت النبوة الكريم– إنما يعملون على زعزعة ثقة الجماعة المؤمنة بالخير والعفة والنظافة؛ وعلى إزالة التحرج من إرتكاب الفاحشة، وذلك عن طريق الإيحاء بان الفاحشة شائعة فيها.. بذلك تشيع الفاحشة في النفوس، لتشيع بعد ذلك في الواقع.

---

(1) **سورة النور: الآية 16.**

(2) **سورة النور: الآية 17.**

(1) **سورة النور: الآية 19.**

من أجل هذا وصف الذين يرمون المحصنات بأنهم يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، وتوعدهم بالعذاب الأليم في الدنيا والأخرة. وذلك جانب من منهج التربية، وإجراء من إجراءات الوقاية. يقوم على خبرة بالنفس البشرية، ومعرفة بطريقة تكيُّفِ مشاعرها واتجاهاتها.. ومن ثَمَّ يعقب بقوله: " والله يعلم وأنتم لا تعلمون " .. ومن ذا الذي يعلم أمر هذه النفس إلَّا الذي خلقها؟ ومن ذا الذي يدبر أمر هذه الإنسانية إلّا الذي برأها؟ ومن ذا الذي يرى الظاهر والباطن، ولا يخفى على علمه شيء إلَّا العليم الخبير؟

ومرة أخرى يذكِّرُ المؤمنين بفضل الله عليهم ورحمته:

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّه رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) (1) .

إن الحدث لعظيم، وإن الخطأ لجسيم، وإن الشر الكامن فيه لخليق أن يصيب الجماعة المسلمة كلها بالسوء. ولكن فضل الله ورحمته، ورأفته ورعايته.. ذلك ما وقاهم السوء.. ومن ثم يذكرها به المرة بعد المرة؛ وهو يربيهم بهذه التجربة الضخمة التي شملت حياة المسلمين.

فإذا تمثلوا أن ذلك الشر العظيم كان وشيكاً أن يصيبهم جميعاً، لولا فضل الله ورحمته، صوّرَ لهم عملهم بأنه اتباع لخطوات الشيطان. وما كان لهم أن يتبعوا خطوات عدوهم وعدو أبيهم من قديم. وحذرهم ما يقودهم الشيطان إليه من مثل هذا الشر المستطير:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) [1] .

وإنها لصورة مستنكرة أن يخطو الشيطان فيتبع المؤمنون خطاه. وهم أجدر الناس أن ينفروا من الشيطان، وأن يسلكوا طريقاً غير طريقه المشؤوم! صورة مستنكرة ينفر منها طبع المؤمن. ويرتجف لها وجدانه. ويقشعر لها خياله! ورسْمُ هذه الصورة ومواجهة المؤمنين بها يثير في نفوسهم اليقظة والحذر والحساسية: "ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر".. وحديث الإفك نموذج من هذا المنكر الذي قاد إليه المؤمنين الذين خاضوا فيه. وهو نموذج منفر شنيع. وإن الإنسان لضعيف. معرض للنزعات. عرضة للتلوث. إلَّا أن يدركه فضل الله ورحمته. حين يتجه إلى الله، ويسير على نهجه.

---

[1] **سورة النور: الآية 20.**

[1] **سورة النور: الآية 21.**

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) [1] .

فنور الله الذي يشرق في القلب يطهره ويزكيه.

ولولا فضل الله ورحمته لم يُزكَّ من أحد ولم يتطهر. والله يسمع ويعلم، فيزكي من يستحق التزكية، ويطهر من يعلم فيه الخير والاستعداد "والله سميع عليم "..

وعلى ذكر التزكية والطهارة تجيء الدعوة إلى الصفح والمغفرة بين بعض المؤمنين وبعض– كما يرجون غفران الله لما يرتكبونه من أخطاء وذنوب–:

(وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (2).

نزلت في أبي بكر رضي الله عنه بعد نزول القرآن ببراءة الصديقة. وقد عرف أن مسطح بن أثاثة كان ممن خاضوا فيه قريبه. وهو من فقراء المهاجرين. وكان أبو بكر رضي الله عنه ينفق عليه. فآلى على نفسه لا ينفع مسطحاً بنافعة أبداً.

نزلت هذه الآية تذكر أبا بكر، وتذكر المؤمنين، بأنهم يخطئون ثم يحبون من الله أن يغفر لهم. فليأخذوا أنفسهم بعضهم مع بعض بهذا الذي يحبونه، ولا يحلفوا أن يمنعوا البر عن مستحقيه، إن كانوا قد أخطأوا وأساءوا..

وهنا نطلع على أفق عال من آفاق النفوس الزكية، التي تطهرت بنور الله. أفق يشرق في نفس أبي بكر الصديق رضي الله عنه، أبي بكر الذي مسّه حديث الإفك في أعماق قلبه، والذي احتمل مرارة الاتهام لبيته وعرضه. فما يكاد يسمع دعوة ربه إلى العفو؛ وما يكاد يلمس وجدانُه ذلك السؤال الموحي: "ألا تحبون أن يغفر الله لكم؟" حتى يرتفع على الآلام، ويرتفع على مشاعر الإنسان، ويرتفع على مناطق البيئة، وحتى تشف روحه وترف وتشرق بنور الله. في طمأنينة وصدق يقول: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي. ويعيد إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، ويحلف: والله لا أنزعها منه أبداً. ذلك في مقابل ما حلف: والله لا أنفعه بنافعة أبداً. بذلك يمسح الله على آلام ذلك القلب الكبير، ويغسله من أوضار المعركة، ليبقى أبداً نظيفاً طاهراً زكياً، مشرقاً بالنور..

---

[1] **سورة النور: الآية 21.**

[2] **سورة النور: الآية 22.**

ذلك الغفران الذي يذكر الله المؤمنين به. إنما هو لمن تاب عن خطيئة رمي المحصنات وإشاعة الفاحشة في الذين آمنوا.

فأما الذين يرمون المحصنات عن خبث وعن إصرار، كأمثال ابن أبَيٍّ فلا سماحة ولا عفو. ولو افلتوا من الحد في الدنيا، لأن الشهود لم يشهدوا فإن عذاب الله ينتظرهم في الآخرة. ويومذاك لن يحتاج الأمر إلى شهود:

(إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (23) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (24) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ) [1] .

ويجسم التعبير جريمة هؤلاء ويبشعها؛ وهو يصورها رمياً للمحصنات المؤمنات وهن غافلات غارّات، غير آخذات حذرهنَّ من الرمية. وهن بريئات الطوايا مطمئنات لا يحذرْن شيئاً، لأنهن لم يأتين شيئاً يحذرنه! فهي جريمة تتمثل فيها البشاعة كما تتمثل فيها الخسة. ومن ثم يعاجل مقترفيها باللعنة. لعنة الله عليهم، وطردهم من رحمته في
الدنيا والآخرة.

ثم يرسم ذلك المشهد الأخّاذ: "يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم ".. فإذا بعضهم يتهم بعضاً بالحق، إذ كانوا يتهمون المحصنات الغافلات المؤمنات بالإفك! وهي مقابلة في المشهد مؤثرة، على طريقة التناسق الفني في التصوير القرآني. "يومئذٍ يوفيهم الله دينهم الحق".. ويجزيهم العدل، ويؤدي لهم حسابهم الدقيق. ويومئذٍ يستيقنون مما كانوا يستريبون: "ويعلمون أن الله هو الحق المبين"..

ويختم الحديث عن حادث الإفك ببيان عدل الله في اختياره الذي ركبه في الفطرة، وحققه في واقع الناس. وهو أن تلتئم النفس الخبيثة بالنفس الخبيثة، وأن تمتزج النفس الطيبة. وعلى هذا تقوم العلاقات بين الأزواج.

وما كان يمكن أن تكون عائشة رضي الله عنها كما رموها، وهي مقسومة لأطيب نفس على ظهر هذه الأرض:

(الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) [1] .

---

[1] **سورة النور: الآيات 23– 25.**

[1] **سورة النور: الآية 26.**

ولقد أحبت نفسُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة حباً عظيماً. فما كان يمكن أن يُحبّبَها الله لنبيه المعصوم، إن لم تكن طاهرة، هذا الحب العظيم.

أولئك الطيبون والطيبات " مبرأون مما يقولون" بفطرتهم وطبيعتهم، لا يلتبس بهم شيء مما قيل. " لهم مغفرة ورزق كريم ".. مغفرة عما يقع منهم من أخطاء. ورزق كريم. دلالة على كرامتهم عند ربهم الكريم.

بذلك ينتهي حديث الإفك. ذلك الحادث الذي تعرضت فيه الجماعة المسلمة لأكبر محنة. إذ كانت محنة الثقة في طهارة بيت الرسول، وفي عصمته الله لنبيه أن لا يجعل في بيته إلَّا العنصر الطاهر الكريم. وقد جعلها الله معرضاً لتربية الجماعة المسلمة، تشف وترف؛ وترتفع إلىآفاق النور.. في سورة النور.

سورة الفرقان

[الآيات 27– 29]

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (27) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولاً).

أخرج مسلم في صحيحه من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إنما مثل الجليس الصالح، والجليس السوء، كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير، إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة".

وذكر أبو بكر البزار عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قيل يا رسول الله أي جلسائنا خير؟ قال: من ذكّرَكم بالله رؤيته، وزاد في علمكم منطقه، وذكركم بالآخرة عملُه.

وقال مالك بن دينار: إنك إن تنقل الأحجار مع الأبرار خير لك من أن تأكل الخبيص مع الفجار.. وأنشد:

وصاحبْ خيار الناس تنجُ مسلَّماً... وصاحب شرار الناس يوماً فتندَما [1]

إن الإنسان أليف مألوف كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

ولكن الصاحب ساحب، يسحبك إلى الخير أو إلى الشر.. فإلى أين تحب أن تصير؟!!

وقديماً قيل: قل لي من تصاحب أقل لك من أنت؟.. فالصاحب مرآة صاحبه، ولن ترى رجلاً يصاحب رجلاً يختلف عنه، فالأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف.. ومن أراد الخير صاحب أهل الخير، ومن أراد الشر صاحب أهل الشر.

والعاقل، العاقل من ابتغى الخير لنفسه وحسن الختام

فنفع نفسه وصاحب من يدله على الخير، واتقى جليس السوء ونأى عنه، وفرَّ فراره من الأسد:

اصحب خيار الناس حيث لقيتهم

خير الصحابة من يكون عفيفاً

والناس مثل دراهمٍ ميزتُها

فوجدتُ منها فضة وزُيوفاً

---

[1] **تفسير القرطبي 27/ 13.**

وهذا عقبة بن أبي معيط نطق بشهادة الإسلام ثم خرجت من قلبه، لأنه أرضى صاحبه أُبيَّ بن خلف أخا أمية فأورده النار، وبئس الورد المورد.

يروى أن عقبة بن أبي معيط صنع وليمة، فدعا إليها قريشاً، ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها، والداعية– ورسول الله أول داعية– اغتنمها فرصة فأبى أن ينال من طعام عقبة شيئاً إلَّا إذا أسلم، وهو الذي يقول: صلى الله عليه وسلم. "لا تصاحب إلَّا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلَّا تقي"..

وهذا يعني أيضا أن تأكل من طعام المسلم التقي..

وكره عقبةُ أن يتأخر عن طعامه من أشراف قريش أحد..

ورسول الله صلى الله عليه وسلم أشرف الأشراف– فأسلم ونطق بالشهادتين– فقبِلَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وأكل من طعامه..

وهنا جاء دور الخليل والصاحب.. وصاحب عقبة وخليله أبَيُّ بن خلف، وهو كافر فاجر، وكان غائباً فسمع ما فعل عقبة، فعاتبه، فقال عقبة: رأيت عظيماً أن لا يحضر طعامي رجلٌ من أشراف قريش. فقال له خليله أبَيٌّ: هذا فراق بيني وبينك إلَّا أن ترجع، وتبصق في وجهه، وتطأ عنقه، وتقول كيت وكيت.. ففعل عدو الله ما أمره به خليله، فكتبه الله من التعساء أبد الآبدين بعد أن دخل في الإسلام.. نسال الله حسن الخاتمة.

قال الضحاك: لما بصق عقبة في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، رجع بصاقه في وجهه، وشوى وجهه وشفيته، حتى أثر في وجهه، وأحرق خديه، فلم يزل أثر ذلك في وجهه حتى قتل..

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: لا ألقاك خارج مكة إلَّا علوت رأسك بالسيف.

وفي معركة بدر كان عقبة بن أبي معيط بين الأسرى، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله قبل دخول المدينة،

فقال: أأقتل دونهم؟ فقال نعم بكفرك وعتوِّك،

فقال: من للصبية؟

فقال: النار.

فقام عليٌّ رضي الله عنه فقتله.

ويوم القيامة تكون الحسرة والندامة الأبدية، الحسرة على نعيم ضاع، والندم على فعل أورده النار، فهو يعض على يديه.. فلا تكفيه يد واحدة يعض عليها وإنما هو يداول بين هذه وتلك، أو يجمع بينهما لشدة ما يعانيه من ندمٍ أكل قلبه، وحسرة فتّتته. فهو ظالم.. وأولُ ما ظلم نفسُه التي بين جنبيه، يتمنى.. ولا ينفع التمني، لو سلك طريق الإيمان، وكان جندياً من جنود الإسلام، يمشي في ظل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقتبس من أنواره، يؤمن برسالته..

ولكن هيهات لقد سبق السيف العذل.

ويأكل الندم فؤاده " ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً " هل نسي اسمه فلم يذكره، أو تجاهله، فلا حاجة إلى تسميته؟

– فهي لا تفيد ولا تنفع– أم إن التنكير يشمل كل صاحب سوء يصدّ عن سبيل الله ويضل عن ذكره؟! نعم كل صاحب سوء، يجر صاحبه إلى النار وبئس المصير..

ويرتفع صوته بالويل والبثور، وعظائم الأمور فهو في نار جهنم يتلظى.. لقد أضله صاحبه، فسلك طريق الظلام، وعشش في قلبه الديجور، وكان النور قاب قوسين منه أو أدنى.. بل إنه دخله.. دخله حقاً.. ولكن سرعان ما انسحب منه إلى كهوف الظلام وغسق الكفر.. استمع إلى شيطان الإنس أبَيٍّ بن خلف.. صاحبه الذي يَصْلى معه لهيب جهنم، وتلفحه زفراتها، واستمع إلى وسواس شيطان الجن.. الذي التقم قلبه، فما يصدر إلَّا عن أمره.. وأين الشيطان الآن؟!.. لقد تخليا عنه.. فكل منهما مشغول بمصابه الذي لا يقل بؤساً عن مصابه.. لقد تخليا عنه وخذلاه..

خذله شيطان الإنس وخذله الشيطان الخناس.. الأول يقول: أنا معك هنا أذوق عاقبة الكفر، والثاني يقول: إن الله وعدك وعد الحق، ووعدتك فأخلفتك.. ومن عادتي إخلاف الوعود.. وأنت تعلم ذلك.. ليس لي عليك سلطان، لا تحدق بي، ولا تلمني.. إني دعوتك إلى

الكفر فأجبتني.. فذق مرارة كفرك وعنادك، لا أستطيع مساعدتك كما أنك لا تستطيع مساعدتي.. فهما في النار سواء.

هل تقف القصة عند هذا الحد؟! إن العاقل اللبيب يتخذ منها عبرة وعظة، ودرساً يلتزمه خيراً ويبعد عنه شراً.

ويوم القيامة يقف رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول بملء فيه:

(يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً) [1] ، كيف نكون من أتباعه ونهجره؟!!! إنه لأمر يستحق الوقوف أمامه والتفكر فيه.

إنها شكوى من رسول الله صلى الله عليه وسلم.. ومن يشكوه صلى الله عليه وسلم؟؟!

أهم المشركون، قد يكون.. ولكن دون شكواه صلى الله عليه وسلم سيدخل هؤلاء النار ويعذبون، أم المسلمون الذين آمنوا بالقرآن نظرياً، وكذبوه عملياً.. والتكذيب العملي أن نترك أحكامه وشريعته فنعطلها.. ونستبدل بها شرعاً أرضياً

---

[1] **سورة الفرقان: الآية 30.**

آخر..

لعمري إنها الثانية.. إنه صلى الله عليه وسلم يشكو الذين تعلموا القرآن وما عَمِلُوا به، وحفظوه في كتبهم وبيوتهم، ولم يُحَكِّموه في حياتهم، وقرأوه في حفلاتهم واجتماعاتهم، ونسوه في تصرفاتهم وسلوكهم.. فالقرآن ما نزل ليتلى فقط، إنما أنزله الله ليكون نوراً يهدي البشرية في حياتها،وضياءً يسطع فينير دربها، يهتدي بهديه المسلمون، ويعمل بشرعته الحاكمون**!!** فيطرحون كل دخيل ويتمسكون بكل أصيل..

إن لم نعد لله نرفعُ راية

للحق، تُبذلُ عندها الأعمار

ونصول في ساح العقيدة جحفلاً

رُوّاده، ووقوده الأبرار

فالنصر لا يأتي بغير عقيدة

وبغير عزم ضربه بتار

والنصر غال ليس يخطب وده

إلَّا الشباب المؤمن الثوار

والنصر للإيمان، يزجيه الفدا

في درب عزٍ حظَّهُ المختار [1]

---

[1] **الأبيات للمؤلف من ديوانه (نبضات قلب !، قصيدة: (مولد المختار"، ص 46.**

سورة الأحزاب

[الآية 53]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيماً)

نقف في هذه الآية على أدَبين كريمَين من آداب الإسلام نزلاعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم:

أولهما: أن المسلمين كانوا، قبل نزول هذه الآية، يسلم الرجل على أهل البيت ويدخل دون استئذان، ولم يكن للبيوت إذ ذاك أبواب ولم يكن لها، على الأغلب، سُتُر، فقد يرى المرء من أهل البيت، ما لم يكن يريد أن يراه الناس من عورته،

وقيل : أمر الناس أن يستأذنوا في سورة النور: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا) [1]

وقيل: إن هذه الآية – في سورة النور – نزلت لعموم المسلمين.

أما آية الأحزاب فهي خاصة ببيت النبي صلى الله عليه وسلم. فقد روي أن سبب نزولها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تزوج زينب بنت جحش،– امرأة زيد–، أَوْلَم عليها، فدعا الناس، فلما طَعِمُوا جلس طوائف منهم يتحدثون في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأطالوا الجلوس، وتأذى رسول الله صلى الله عليه وسلم من تأخرهم، ولمّا يَبْنِ بزوجته وكانت جالسة وظهرها إلى القوم!.. ولم يأمرهم بالخروج لحيائه صلى الله عليه وسلم فلما خرجوا نزلت هذه الآية .

يقول أنس فانطلق حتى دخل البيت،

فذهبتُ أدخلُ معه فألقى السترَ بيني وبينه.. ونزل الحجاب.. قال ووعظ القومَ بما وُعِظوا به، وأنزل الله عز وجل هذه الآية.

---

[1] **سورة النور: الآية 27.**

وقال ابن عباس: نزلتْ هذه الآية في ناس من المؤمنين كانوا يتحينون طعام النبي صلى الله عليه وسلم، فيدخلون قبل أن ينضج الطعام فيقعدون إلى أن ينضج، ثم يأكلون ولا يخرجون.. فهم ثقلاء على نفس الداعي، وإن كانوا من المؤمنين، فالذوق مطلوب والتصرف بكياسة ولباقة صفة المسلم، وحسبك من الثقلاء أن الشرع لم يحتملهم.

لكننا نفهم من هذه القصة ما يلي:

ا- إجابة الدعوة لعرس؛ واجبة.

2- الحضور وقت الغداء، والانصراف بعده.

3- مراعاة ظروف أهل البيت، فلم يكن للسيدة

زينب سوى غرفة واحدة.

ثانيهما: روى أبو داود الطيالسي عن أنس بن مالك قال عمر رضي الله عنهما: وافقت ربي في أربع.. الحديث

وفيه: قلت: يا رسول الله لو ضربت على نسائك الحجاب - فإنه يدخل عليهن البر والفاجر- فانزل الله عز وجل. (وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَابٍ).

وبما أن نساء النبي صلى الله عليه وسلم يعشن في بيت النبوة فهنَّ قدوة للنساء كما أن رسول الله قدوة للرجال..

وقد يسأل السائل عن أمور لا يفعلها الرسول الكريم إلَّا في بيته فتكون أمهات المؤمنين مفتاح الجواب الشافي. فإذا أمر الرجال بغض البصر عن النساء المسلمات فأحرى بهم أن يغضوه حين يرون نساء النبي صلى الله عليه وسلم، وإذا كان المؤمن يغض بصره عن النساء العفيفات اللواتي لا يبدين زينتهنّ، فأولى به أن يغض بصره عمن لا يتحرجْن من التكشف والترخّص فهذا أدعى لسلامة قلبه وراحة نفسه.. والمرأة فتنة كلها، عفيفةً كانت أم غير عفيفة، فهي مثار الشهوات وداعية الغواية، "ما تركت فتنة من بعدي أشد على الرجال من النساء".

وقديماً.. وليس بالقديم الموغل.. قال الشاعر النصراني "القروي" وكان فيه بقية من حياء، حين رأى امرأة تلبس ثوباً يغطي الركبتين، ويكشف ما تحتهما.. قال متعجباً مستنكراً من ذاك "التعري " الفاضح.

لحد الركبتين تشمرينا

بربّكِ أي نهرٍ تعبرينا

فماذا يقول لو أعيد إلى الحياة- ولن يعود أحد-؟ ماذا يقول والنساء خلعن ثوب الحياء إلَّا من ورقة التوت.. ماذا يقول وقد تعرّت النساء في النوادي وعلى سواحل

البحر وفي الطرقات !؟! وقد عَرَضن أنفسهن سلعاً رخيصة

لمن يشتري !!؟

.. أقول على لسانه، ونيابة عنه.

خلعت الطهر والخلق المتينا

فصرتِ بضاعة للمفسدينا

وقلدت الكوافر دون وعي

فعشتِ مهينة دنيا ودينا

إن الإسلام حين فرض الحجاب أبعد وسواس الشيطان عن نفس المؤمن والمؤمنة، فلم تقع عيناهما على ما يحرك دواعي الفساد، ونفى الريبة التي تتولد من النظرة "لأن النظرة سهم من سهام إبليس " وأبعدَ التهمة وشدد في الحماية واعتمد مبدأ. "درهم وقاية خير من قنطار علاج " بل إنه منع خلوة المرأة بالأجنبي، فلا تقابل المرأة أجنبياً إلَّا مع ذي محرم، وما أعظم فقه عمر بن عبد العزيز إذ قال: " لا تخلونَّ بامرأة ولو كنت تعلمها القرآن ".

فماذا نقول، وكثير ممن يدَّعون الإسلام، تخرج نساؤهم كاسيات عاريات.

ماذا نقول وكثير ممن يدَّعون الإسلام يساهرون ضيوفهم رجالاً ونساءً بحجة اللقاءات البريئة، والنظرة الطاهرة، وإكرام الضيف؟!! إذ من المعيب أن تمتنع المرأة عن استقبال ضيوف زوجها!! فهذا تأخر وعمل، رجعي متخلف! أ أما الاختلاط، والنظرة الحرام، وسهام إبليس، والتميع في الحديث والضحكة المتكلفة (البريئة) والمصافحة و.. و.. فالتقدم بعينه.. التقدم! إلى أين ؟إلى غضب الله ومقته.

(وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً) [1] .

قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال رجل من سادات قريش– في نفسه– لو توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم لتزوجت عائشة، وهي بنت عمي " قال مقاتل: هو طلحة بن عبد الله".

قال ابن عباس: وندم هذا الرجل على ما حدّث به نفسه، فمشى إلى مكة من حراء "وقد كان مع رسول الله مع عشرة من أصحابه"، على قدميه، وحمل على عشرة أفراس في سبيل الله، وأعتق رقيقاً.. فكفّر الله عنه.

وقيل ليس بطلحة، إنما هو رجل من المنافقين قال حين تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم سلمة بعد أبي سلمة، وحفصة بعد خنيس بن حذافة: ما بال محمد يتزوج نساءنا؟! والله لو مات لأجَلْنا السهام على نسائه، فنزلت هذه الآية فحرَّم الله نكاح أزواجه من بعده، وجعل لهنَّ حكم

---

[1] **سورة الآحزاب: الآية 53.**

الأمهات، وهذا من خصائصه صلى الله عليه وسلم تمييزاً لشرفه، وتنبيهاً على مرتبته صلى الله عليه وسلم،

قال الشافعي رحمه الله:

" وأزواجه صلى الله عليه وسلم اللاتي مات عنهن لا يحل لأحد نكاحهنَّ، ومن استحل ذلك كان كافراً".

وقَرَنَ القرآنُ الكريم إيذاءَ الرسول ﷺ بزواج نسائه من بعده وجعل ذلك ذنباً عظيماً، فإيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم من جملة الكبائر، ولا ذنب أعظم منه عند الله "إن ذلكم كان عند الله عظيماً ".

بل إن الذين يؤذون الرسول الكريم فكأنما يؤذون الله تعالى، وهؤلاء ملعونون في الدنيا والآخرة، وقد أعدّ الله لهم عذاباً مهيناً.

إن المسلم ليحمد الله تعالى أن أرسل إليه رسولاً عظيماً رؤوفاً رحيماً. فله الحب والودُّ والإجلال والتقدير مدى الدهور.

أنت الرحيم البر يا رب
أرسلت طه فازدهى العُرْبُ
حملوا هداه للورى قُدُماً
وبشرعه نوراً جلا الدربُ
فله سلام دائم عبِقٌ
يزجيه قلب والهٌ صَبٌّ [1]

---

[1] **ديوان: نبضات قلب، ص 14.**

"السِّحر"

يقال: سحره فلانٌ: خدعه واستماله، وسلب لبُّه. أي سيطر عليه دون وجه حق. ومارس عليه قدرة خارقة لم يقدر على الوقوف أمامها فكان عاجزاً منقاداً..

وبناء على هذا ما من نبي كذبه قومه إلَّا رمَوْه بالسحر.

فهذا سيدنا موسى قال له فرعونُ وملؤه، ومنهم السحرة الذين تحدَّوه وسحروا أعين الناس، واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم، جعلوا عيبهم فيه، واتهموه بالسحر، وأنه مهما مارس عليهم من أفانين السحر والشعوذة فلن يظفر منهم بطائل، ولن يؤمنوا به (وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ) [1] .

بل إنهم لما جمعوا السحرة ومنَّوْهم بالزلفى، والمال الوفير، والقرب من فرعون إذا أفلحوا في سحرهم، ولما نصره الله عليهم فأبطل سحرهم وعرّاهم وأيقن السحرةُ أن مع موسى قوةً خارقة ليست لبشر إنما هي لإله.. وظهر الحقُّ وبطل كيدهم.. استكبر فرعون وبطانته ونسوا أنهم جمعوا السحرة ووعدوهم.. وكذّبوا موسى دون أدب ولا ذوق (فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ) [1] بل إنهم سرعان ما اتهموا السحرة الذين آمنوا برب موسى، بعد أن كانوا أداة بأيديهم وهددوهم بالقتل، اتهموهم بأنهم ما آمنوا بموسى لأنه على حق إنما صدقوه لقوة سحره الذي أبطل سحرهم فتغلب عليهم فانقادوا له– على زعمهم– (إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) [2] .

وهذا عيسى عليه السلام ظهرت على يديه المعجزات ووضحت في أفعاله البينات، كلَّم الناسَ في المهد، وخلق من الطين بإذن الله الطيرَ، وأبرأ الأكمه والأبرص– بإذن الله– وأخرج الموتى بإذن الله، وأنزل الله تعالى – بناء على طلبهم– مائدة من السماء ومع ذلك، كان الكافرون من اليهود يكذبونه ويتهمونه بالسحر (وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ•) [1] .

وهؤلاء قوم صالح عليه السلام تأتيهم الناقة آيةً مبصرة يلمسونها ليلَ نهار، يفيدون من شرابها

---

[1] **سورة الأعراف: الآية 132.**

[1] **سورة يونس: الآية 76.**

[2] **سورة الشعراء: الآية 49.**

[1] **سورة المائدة: الآية 110.**

ويرون فضلها وتكون حجة عليهم.. وكان من المفروض على ذوي العقول أن يؤمنوا بصالح عليه السلام، لكنهم يكفرون، ويقولون فيه هجر القول، ويسخرون منه..

لماذا أرسل الله بشراً مثلهم.. ونسوا أن الله أرسل إليهم رسولاً منهم يقيم الحجة عليهم ، ولو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزل الله عليهم رسولاً ملكاً.. فيتهمونه بالسحر.. بل يعتبرونه مسحّراً.. فهو رجل مسحور !!

وأنى لرجل مسحور أن يدعوهم إلى التوحيد ومكارم الأخلاق؟!!.

ومن العجيب أنه كان مرجوّاً عندهم صادقاً محبوباً قبل أن يكون نبياً.. فلما دعاهم إلى عبادة الله جعلوه كاذباً وشكُّوا في أمره.. والحقيقة أنهم كَذَبَةٌ مثلهم كمثل كلِّ من كذبوا الرسل..

بل إن الرسل جميعاً وُصفوا بالسحر، وكانوا في زعم

الكافرين ساحرين، (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ) [1] .

فلا عجب أن يتّهموا الرسول عليه الصلاة والسلام

بالسحر فيقولوا: (إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ) [2] ولما رأوا القمر بإذن الله منفلقاً أعرضوا وكذبوا وقالوا : (سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ) [3].

وحين أكد لهم الرسول عليه الصلاة والسلام أن الله سيحاسب الكافرين يوم القيامة على كفرهم وتكذيبهم قالوا متهمين سيد البشر (إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ) [4].

وحين ذهب الوليد إليه ﷺ وعرض عليه ما عرضه قومه من مُلك، ورياسة، ومال ونساءٍ وطب فاسمعه الرسول صلى الله عليه وسلم بعض آيات من القرآن الكريم.. عاد الوليد إلى قومه، فقالوا: عاد الوليد إليكم– والله– بغير الوجه الذي ذهب به، وسألوه فقال لهم: لقد سمعت من محمد عليه الصلاة والسلامُ كلاماً ما هو بشعر ولا كهانة، ولا سحر.. فقالوا :صبا – والله– الوليد.. فأخذته العزة بالإثم، ثم فكر، وقدر، فوصل إلى جهالة، وضلالة، فقال إنه سحر، ألا ترون أنه يفرق به المرء وزوجه، والأب وابنه.. "إن هذا إلَّا سحر يؤثر. إن هذا إلَّا قول البشر" ولو فكر ملياً وهداه الله لَعَلِمَ أن الذي يفرق بين الأب والابن، والزوج وزوجته إصرارُ أحدهما على الكفر، ودخول الآخر في دين التوحيد.. ولكن أنَّى له ولأمثاله أن يتفهموا أن الولاء لله وحده، وأن الناس يوم القيامة يُفصل بينهم، فمن كتب له السعادة كان من أهل الجنة، ومن كتب

---

(1) **سورة الذاريات: الآية 52.**

(2) **سورة سبا: الآية 43.**

(3) **سورة القمر: الآية 2.**

(4) **سورة هود: الآية 7.**

عليه الشقاء كان من أهل النار، وأنه لا أنساب يوم القيامة بين الناس. إنَّ العقيدة هي الفيصل في التعامل في الدنيا والآخرة.

وهذا ما فهمه مصعب بن عمير رضي الله عنه حين أُسِرَ أخوه أبو عزيز في بدر، فقال لمصعب أوصِ المسلم الذي أسرني بي يا أخي.. فقال مصعب للمسلم: أشدد عليه يا أخي فإن له أماً غنية تفديه.. فتعجب أبو عزيز وقال: أهذه وصاتك بي يا أخي.. قال مصعب بعزة المسلم: " صه فإنه أخي من دونك.. ".

أما السحر فإن أهله لا يفلحون (أَسِحْرٌ هَذَا وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ) [1] .

إنه الإيمان الذي يحدد وجهة الإنسان ويدفعه إلى ركب إخوانه في العقيدة لا يعرف سواهم ولا يأبه بغيرهم..

---

(1) **سورة يونس: الآية 77.**

" الجنون "

الجنون في اللغة: زوال العقل، وكل ما اشتق من (جنّ) فعلٌ دلَّ على الاستتار.

فالجَنَّةُ: مأوى المؤمنين في الآخرة، لا نراها فهي مستورة عن إدراكنا البصري.

الجانُّ: مخلوقات تعيش بيننا، لا نراها.

الجَنين: من كان في بطن أمه، لا تراه أعيننا.

المَجِنُّ: الترس الذي يقينا ضربات السيوف وطعنات الرماح.

وجعل الكافرون للداعية العظيم محمد صلى الله عليه وسلم نصيباً من صفة الجنون، ولا يضيره فالله تعالى برّأه مما قالوا: (وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ) [(1)] .

فتعالوا معي نستعرض افتراءات الكافرين بهذه الصفة على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أولاً: قال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم : إن كان الذي يأتيك رِئِيّا بذلنا لك حتى تبرأ.. إذاً فالنبي– بزعمهم– يتراءى له جني ،فتختلط عليه الأمور فيتكلم بما لا يعرفون..

وهذا أمر عجيب من وجوه كثيرة منها:

1– أن كثيراً من قبائل العرب كانت تعبد الجنَّ (وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ)[(1)] .

فكان أولى بهم أن يتبعوه صلى الله عليه وسلم لأن آلهتهم التي يعبدونها أكرمت!! محمداً!!! فهي تتراءى له.

وعلى الرغم من أن هذا الزعم باطل، فرسول الله صلى الله عليه وسلم برأه الله تعالى من هذا الافتراض فقال سبحانه: (مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم) [(2)] وجعلوا له قريناً من الجنِّ.

2– والجن والشياطين أعداء للبشر. هذا ما قاله أبوهم إبليس: (قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) [(3)] فإذا كان الجن يتراءى له، فكيف يأمره بالإخلاص في

[(1)] **سورة التكوير: الآية 22.**

[(1)] **سورة الأنعام: الآية 100.**

[(2)] **سورة سبا: الآية 43.**

[(3)] سورة ص : الآيتان 82-83.

عبادة الله، ومكارم الأخلاق؟ وكيف يأتيه بشريعة عظيمة، لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا خلفها،

إن الرجال الذين يتعاملون مع الجن ينالهم الأذى منهم، ويصرعون، ويهرفون بما لا يعرفون (وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً) [1] ، أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان على خلق عظيم شهد به الأعداء الكافرون قبل بعثته صلى الله عليه وسلم فهو الصادق الأمين. وهل يكون من يأتيه الجن كذلك؟!!.

3- ومن العجيب أنهم يقولون (مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ) [2] ، فهناك مِن الجن من يعلمه! أفلا سالوا أنفسهم: إن كان هذا حقاً فلِمَ لم يأتوا بمثل هذا القرآن، وهذا العلم؟ وكثير من العرب يعبدون الجن، ولبعضهم معهم الكثير من العلائق؟!

إن العرب جميعاً من القدم وحتى الآن يعجزون أن يأتوا بمثل هذا القرآن وهؤلاء الجن بين أظهرنا.. أفلم يظهر – على حد زعمهم– جنيّ فذٌّ عبقري يعلمهم ما تعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟!! إنه الافتراء العظيم والكذب المبين!!

إنَّ هذا القرآن من عند خالق البشر والجان (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) [3] .

لكن الكافر حين يريد التفلُّت من التكليف يرمي الصادقين بما ليس فيهم، ويفتري عليهم دون إثبات، وليس لهم قدرة على الوقوف أمام الحق، لذلك تراهم يتّهمون رسول الله بالتعامل مع الجن وينتظرون موته ليتخلصوا منه.

(إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ) [1] .

بل إن الله ليفضحهم فيخرج ما في نفوسهم ويعرّيهم، فهم يكرهون الحق فيؤذون صاحبه:

(أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ) [2] .

ثانيا: وصفوه عليه الصلاة والسلام بالجنون (ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ) [3] وهذا ساقط من وجوه عدة أذكر

منها:

ا- أن هذه الأسطوانة مكررة، سمعها الأنبياء عليهم الصلوات والسلام من كفارهم كثيراً، وليس

---

[1] **سورة الجن: الآية 6.**

[2] **سورة الدخان: الآية 14.**

[3] سورة الحجر : الآية 9.

[1] **سورة المؤمنون: الآية 25.**

[2] **سورة المؤمنون: الآية 70.**

[3] سورة الدخان : الآية 14.

رسول الله–صلى الله عليه وسلم– بدعاً من الرسل– فهو صلى الله عليه وسلم وإخوانه الأنبياء يَصدرون عن مشكاة واحدة فلا غرو أن يصيبه ما أصابهم من تعنت الكافرين، فهذا فرعون يقول لأتباعه والأذلاء مِن حوله معرضاً بموسى عليه السلام (إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ) [1] ولماذا يصفه إذ ذاك بالجنون؟! ولماذا– حين شعر أن ثوب الألوهية المزيف سقط عنه– رمى موسى بالجنون؟ إنه أسلوب الطغاة في كل زمان ومكان.. وما أكثر ما نراه في هذه الأيام الرديئة. حين نرى الفسقة والمجرمين ممن يَلُون الأمور يرمون المسلمين بالسّفه، وضعف العقل، وعدم مسايرة ركب الحضارة... والجنون!!!.

2– لم نر مجنوناً جاء بعلم أو شريعة أو قاد عقلاء، إلَّا أن يكونوا مجانين مثله، أو لا حول لهم ولا قوة، بالقهر والإرهاب!!، ولم يكن المجنون يوماً من الأيام صاحب مبدأ.. فالمبدأ في العقل، وأين منه العقل؟!! إنك تراه مرة يضحك دون سبب ويبكي دون سبب، يفعل بنفسه ما لا يفعله به العدو، لا وقار له ولا حلم، سقطت عنه التكاليف فلا يسأل عما يفعل.. ولو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مجنوناً– وحاشاه ثم حاشاه– ما جاءوا إليه يعرضون المال، والرياسة، والنساء، والملك.. فالمجنون على حدّ زعمهم لا يخشى منه فلماذا يخشون من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟..

إنهم يكذبون ويكذبون، ويسيئون ويؤذون.. كي يتخلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن دعوته، ويتركهم يعيشون على هواهم كما تعيش الأنعام ،لكنه رسول.. والرسول عليه أن يدعو إلى الله ويتحمل أذى المشركين (فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ) [1] .

ويصرون على أنه مجنون ،وينظرون إليه صلى الله عليه وسلم بغضب ويتمنون انزلاقه وسقوطه ويأبى الله إلَّا أن يرفع شانه.

(وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (51) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ) [2] .

3– لم يسمع التاريخ بمجنون هو عند قومه الصادق الأمين، يودعون عنده الودائع، ويستشيرونه في ملمات الأمور،ويعتبرونه في الذروة من الشرف فيهم ويقرّون بفضله، ويُحَكِّمونه فيهم (رفع الحجر الأسود)ويزوجونه خير نسائهم، صلَّى الله عليه وسلّم.

---

[1] **سورة الشعراء: الآية 27.**

[1] **سورة الطور: الآية 29.**

[2] **سورة القلم: الآيتان 51، 52.**

سورة يس

[الآيتان 7، 8]

(لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (7) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ) .

كلما قرأت قوله تعالى: (وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) [1] شعرت كأن القلب نَبَضَ سريعاً وتفتحت مساماته، فدخلته النسائم الباردة المنعشة ثم تحرك واضطرب نشوانَ، فلا يهدأ حتى يحسَّ أنه ضم بين جوانحه حبَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ذلك الداعية القدوة الذي أوذي في الله، ومكرَ أعداءُ الله به فحماه الله تعالى وعصمه من الناس.

نَزَلَت: (إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً) في أبي جهل وصاحبيه المخزوميين- كما قيل- وذلك أن أبا جهل حلف :لئن رأى رسول الله ليرضخنَّ رأسه بحجر، فلما رآه رفعَ حجراً ليرميه، فلما أومأ إليه رجعت يده إلى عنقه،والتصق الحجر بيده(قاله ابن عباس وعكرمة وغيرهما) فهو بمنزلة من غُلت يده إلى عنقه، فلما عاد إلى أصحابه أخبرهم بما جرى له.

فقال الرجل الثاني- الوليد بن المغيرة- أنا أرضخ رأسه، فأتاه وهو يصلي ليرميه، فأعمى الله بصره، فجعل يسمع صوته ولا يراه، فرجع إلى أصحابه ،فلم يرهم حتى نادَوه، فقال: والله ما رأيته ولكن سمعت صوته.

فقال الثالث: والله لأشرخنَّ أنا رأسه، ثم أخذ الحجر وانطلق، فرجع القهقرى ينكص على عقبيه حتى خرَّ على قفاه مغشياً عليه. فقيل له: ما شأنك؟ قال: شأني عظيم، رأيتُ الرجل، فلما دنوت منه، وإذا فَحْلٌ يخطر بذَنَبه، ما رأيت فحلاً قط أعظم منه، حال بيني وبينه، فواللات والعزى لو دنوت منه لأكلني، وكان فعلهم هذا سبباً في ضلالهم في الدنيا وعذابهم في الآخرة.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتصم بقراءة القرآن، ومنه

(وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً) [1] .

---

[1] **سورة الفرقان: الآية 67.**

[1] **سورة الإسراء: الآية 45.**

وقد نزلت هذه الآية في "أم جميل " زوجة أبي لهب. روت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قال: لما

نزلت سورة " تبت يدا أبي لهب وتب.. " أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان بن حرب، ولها ولولة، وفي يدها فهر (حجر) وهي تقول:

مذمَّماً عصينا، وأمرَهُ أبَيْنا، ودينَه قَلَيْنا.

والنبي صلى الله عليه وسلم قاعد في المسجد، ومعه أبو بكر رضي الله عنه، فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله، لقد أقبَلتْ، وأنا أخاف أن تراك، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنها لن تراني، وقرأ: "وإذا قرأتَ القرآن..." فوقفتْ على أبي بكر رضي الله عنه، ولم تر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت:

يا أبا بكر أُخبِرتُ أن صاحبك هجاني! فقال: لا ورب هذا البيت ما هجاك، قال: فولّت وهي تقول: قد علمت قريش أني ابنة سيدها وفي رواية أن أبا بكر رضي الله عنه قال: لو

تنحيت عنها لئلا تُسمعك ما يؤذيك، فإنها امرأة بذيّة. فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "إنه سيحال بيني وبينها " فلم تره.. فقال الصديق: يا رسول الله أما رأتك؟ قال: لا، ما زل ملكٌ بيني وبينها يسترني حتى ذهبت.

قال كعب رضي الله عنه: كان النبي صلى الله عليه وسلم يستتر من المشركين بثلاث آيات:

1- الآية التي في الكهف: (إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً) (1).

2- والآية التي في النحل: (أُولَـئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) (2) .

3- والآية التي في الجاثية: (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً) (3).

هذا بالإضافة إلى هاتين الآيتين من سورة يس، فقد ذكرت السيرة في هجرة النبي صلى الله عليه وسلم ومقام علي رضي الله عنه في فراشه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج وأخذ يقرأ هاتين الآيتين وأخذ حفنة من تراب ذرَّها في وجوه القوم الذين أحاطوا ببيته صلى الله عليه وسلم

---

(1) **سورة الكهف: الآية 57.**

(2) **سورة النحل: الآية 108.**

(3) **سورة الجاثية: الآية 23.**

يريدون قتله، فلم يدروا بخروجه ولم يبق رجل إلَّاوقد وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأسه تراباً ثم انصرف إلى حيث أراد أن ينصرف .

وقد ذكر القرطبي في تفسيره قال:

ولقد اتفق لي ببلادنا الأندلس بحصن "منثور" من أعمال قرطبة مثل هذا، وذلك أني هربت أمام العدو، وانحزت إلى ناحية عنه، فلم ألبث أن خرج في طلبي فارسان، وأنا في فضاء من الأرض قاعدٌ ليس يسترني عنهما شيء، وأنا أقرأ أول سورة يس، وغير ذلك من القرآن، فعبرا علي، ثم رجعا من حيث جاءا، وأحدهما يقول للآخر: هذا شيطان!،

وأعمى الله أبصارهما فلم يرياني، والحمد لله حمداً كثيراً على ذلك.

ما مرَّ تبيان للحفظ عن الرؤية البصرية.. فماذا عن الرؤية القلبية؟

الحقيقة أن الرؤية البصرية إذا ضعفت أو تلاشت فإنما هي نتاج لانعدام الرؤية القلبية.. فالإنسان حين ينعدم النور من قلبه ويتلاشى الإيمان من فؤاده ولا يرى إلَّا أهواءه، وأهواءه فقط، فكأنما صفَّدته أهواؤه في يديه ،وأحاطت عنقه فحصرته في مجال واحد.. الغل يرفع ذقنه فيرتفع وجهه، فيعشي النور بصره، فيغمض عينيه لا يرى من جمال الحق شيئاً، منظره الخارجي منظر الذي يرفع رأسه استكباراً، وإغماضُ عينيه عن النور تعبيرٌ عن الترفع عن الإيمان والإعراضِ عنه، ثم يوضع أمامه سدٌّ فيمنع عنه الضياء، وخلفه سدٌّ فيمنعه عنه النور.. فإذا هو في ظلام يحوطه من الجهات ،فلا يرى الحقَّ فينكفئ إلى ظلمات جهله، يَهِيْمُ فيها لا يلوي على شيء.

هكذا يعيش الكفار.. لا أمل، لا هدف سامياً، حياة كلها شقاء، وبؤس، إنهم يظنون إنهم على هدى.. لماذا؟ لأن الكبر والعناد يمنع صاحبه التفكير والبحث عن الحقيقة.. فيظن الخير في نفسه وهو في الواقع يتخبط في ضلال الكفر وظلام الشرك..

سورة الزُّخرُف

[الآيتان 31– 32]

(وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (31) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ).

رسول الله صلى الله عليه وسلم في الذؤابة من بني هاشم، وبنو هاشم الذؤابةُ من قريش. وقريش سيدة العرب، وأهلُ البيت والحرم، فهو عليه الصلاة والسلام معروف بكريم المحتد

وشرف الأصل.

لكنه صلى الله عليه وسلم لم يكن رئيس قبيلة أو زعيم عشيرة، فما الذي يجعله نبياً وما الذي جعله أهلاً لأن يكون رسولاً لله

أفليس هناك رؤساء للقبائل والعشائر أكثر نفوذاً وأموالاً؟!! فلماذا لا يكونون أكثر أهلية للرسالة.؟

هذا الوليد بن المغيرة في مكة يملك المال الوفير، ويسيّر القوافل لتجارته الخاصة في كثير من الأحيان، وهو أكبر عمراً من رسول الله صلى الله عليه وسلم. وله من الأولاد عدد كبير، يسمع الجميع كلمته، إن دعا الناس إلى الرسالة الجديدة أجابوه، وإذا تكلم أنصتوا له، زعيم عشيرته، يأمر فيطاع ،وينهى فيمتنع الناس. إذا دخل قام الناس، وإن جلس جلسوا.. يعرف الشعر.. مطّلع على الكهانة، يحسب أهل قريش كلهم حسابه فهو رأس بني مخزوم.. والكل يعرف من بنو مخزوم؟!!

وهذا عروة بن مسعود الثقفي من بني ثقيف. أهل الطائف، له من المكانة، والأثر بين قبيلته ما للوليد بن المغيرة في مكة، وكلاهما يشار إليه بالبنان، وترنو إليه العيون، فَلِمَ لَمْ يكن أحدهما النبي؟! ولماذا خصَّ الله ابن عبد الله بن عبد المطلب بها؟..

تساؤلات كثيرة تخطر على عقول أهل مكة، وتحوم حول قلوبهم.. لكن الرسالة التي يريدها الله أن تصل إلى الناس تحتاج إلى إنسان له صفات غير هذه الصفات، تحتاج إلى عقل مستنير، وقلب كبير، وإيمان عميق، وإخلاص متفانٍ، وتحمُّلٍ للأعباء. تحتاجُ إلى جلَد وصبر وإنسان سار منذ الصغر على درب نظيف، لا يعرف مفاسد المجتمع، رُبِّيَ على حب الفضيلة، وعشق

المثل العليا، وكره سفساف الأمور. تحتاج إلى رجل يسمو فوق الشهوات ويعمل على انتشال البشرية من وهدة الضلال، وقيادتها إلى ميزان الفضائل... لا تحتاج إلى مال وفير، ولا عشيرة كبيرة،

فالإيمان لا تفرضه القوة ولا تدفع عنه الأحساب.

والإيمان يحتاج إلى رسوخ في العقيدة وتصديق لها في العمل، وطهارة في النفس وبذلٍ لا حدود له، ولكن حسب الاستطاعة..

ولماذا تكون النبوة في أولئك؟ ولم يبلغوا من الطُهْرِ والصدق والمناقب ما يؤهلهم لذلك..

والدين الذي يريده الله سبحانه وتعالى لإصلاح البشرية، يختار الله له من يشاء من عباده الذين يحملون قِيَماً ترضى عنها السماء، لا علاقة لها بقيم الناس المتواضع عليها في الأرض،

وليتهم يعرفون ذلك من قصة اختيار أحد أنبياء بني إسرائيل طالوت ملكاً، فاعترض الناس بقيمهم الأرضية على هذا الاختيار

(أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ) [1] ؟ فهم بقيمهم الأرضية أحق بالملك منه..!! لماذا... هو من طبقة يرون أنهم أفضل منها.. وهناك عامل آخر.. إنه المال. .. المال الذي تخضع له رقاب الضعفاء من الناس، وما أكثرَهم؟!!

فنبههم الله تعالى إلى أنه صاحب الدين وهو الذي يختار من يراه مناسباً لحمل رسالته (إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) [2].

ففي طالوت صفتان مناسبتان (القوة والعلم) ومن حازهما كان أهلاً لحمل الأمانة..

ثم إنهم بشر لا يملكون لأنفسهم شيئاً، بل لا يملكون أنفسهم، فالله خلقهم ورزقهم، وقدَّر أقواتهم، وأعطاهم ما يشاء، ومنع عنهم ما شاء.. فليس لهم الخيار في كل هذه الأمور.. ومع ذلك فهم يتناسَوْن كل نقصهم وضعفهم، ويتناسون مكانتهم ويسألون بوقاحة: لِمَ كانت النبوة للرسول عليه الصلاة والسلام!!!

إن الرسالة رحمة لصاحبها أولاً، ولمن حوله ثانياً.. أما الرسول عليه الصلاة والسلام فلم يكن إلا رحمته للعالمين. فكان اختياره- سبحانه وتعالى- للرسول محمد- صلى الله عليه وسلم اختيار تزكية، واختيار تعليم، اختاره بعد أن جَبَلَهُ على حسن القيام بهذه المهمة العظيمة.. وكان أهلاً لها .

---

[1] **سورة البقرة: الآية 247.**

[2] **سورة البقرة: الآية 247.**

ورحم الله شوقي فقد وضع في أبياته هذه الملحَ على الجرح.

فكان بيانه بلسماً للجروح وعبيراً للقلوب:

حسدوا، فقالوا: شاعر أو ساحر

ومن الحسود يكون الاستهزاءُ

جرت الفصاحة من ينابيع النهى

من دوحه، وتفجر الإنشاء

في بحره للسابحين به على

أدب الحياة وعلمها إرساء

الله هيأ من حظيرة قدسه

نزلاً لذاتك لم يجُزه علاءُ

العرش تحتك سدةً وقوائماً

ومناكب الروح الأمين وطاء

والرسلُ دون العرش لم يؤذن لهم

حاشا لغيرك موعدٌ ولقاء

سورة الحُجُرات

[الآيات 1– 5]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (1) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (2) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (3) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (4) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)

يقول الأستاذ الشهيد سيد قطب في ظلال القرآن الجزء السادس والعشرين، متحدثاً في هذا الأدب العظيم الذي يجب أن يكونه المسلم في حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم:

تبدأ السورة بأول نداء حبيب، وأول استجاشة للقلوب: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) نداءٌ من الله للذين آمنوا به بالغيب. واستجاشة لقلوبهم بالصفة التي تربطهم به، وتشعرهم بأنهم له، وأنهم يحملون شارته، وأنهم في هذا الكوكب عبيده وجنوده، وأنهم هنا لأمر يقدّره ويريده، وأنه حبَّبَ إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم اختياراً لهم ومنَّةٌ عليهم، فأولى لهم أن يقفوا حيث أراد لهم أن يكونوا، وأن يقفوا بين يدي الله موقف المنتظر لقضائه وتوجيهه في نفسه وفي غيره، يفعل ما يؤمر ويرضى بما يقسم، ويسلم ويستلم:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

يا أيها الذين آمنوا، لا تقترحوا على الله ورسوله اقتراحاً، لا في خاصة أنفسكم، ولا في أمور الحياة من حولكم. ولا تقولوا في أمر قبل قولِ الله فيه على لسان رسوله، ولا تقضوا في أمر لا ترجعون فيه إلى قول الله وقول رسوله.

قال قتادة: ذُكِر لنا أن ناساً كانوا يقولون: لو أنزل في كذا كذا. لو صح كذا. فكره الله تعالى ذلك.

وقال العوفي: نهوا أن يتكملوا بين يديه،

وقال مجاهد: لا تفتاتوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء حتى يقضي الله تعالى على لسانه.

وقال الضاحك: لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم.

وقال علي بن عباس رضي الله عنهما: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة.

فهو أدب نفسي مع الله ورسوله. وهو منهج في التلقي والتنفيذ. وهو أصل التشريع والعمل في الوقت ذاته.. وهو منبثق من تقوى الله، وراجع إليها. هذه التقوى النابعة من الشعور بان الله عليم.. وكل ذلك في آية واحدة قصيرة، تلمس وتصور كل هذه الحقائق الأصيلة الكبيرة.

وكذلك تأدب المؤمنون مع ربهم ومع رسولهم؛ فما عاد مقترح منهم يقترح على الله ورسوله؛ وما عاد واحد منهم يدلي برأي لم يطلب منه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدلي به؟

وما عاد أحد منهم يقضي برأيه في أمر أو حكم، إلَّا أن يرجع قبل ذلك إلى قول الله وقول الرسول..

روى أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه بإسناده عن معاذ رضي الله عنه حيث قال له النبي صلى الله عليه وسلم حين بعثه إلى اليمن:" بم تحكم؟ "

قال: بكتاب الله تعالى.

قال صلى الله عليه وسلم: " فإن لم تجد؟!

قال: بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم،

قال صلى الله عليه وسلم:" فإن لم تجد؟"

قال رضي الله عنه: أجتهد رأي.

فضرب في صدره وقال: " الحمد لله الذي وفق رسولَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم لما يرضي رسول الله ".

وحتى لكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم، يسألهم عن اليوم الذي هم فيه، والمكان الذي هم فيه، وهم يعلمونه حق العلم،

فيتحرجون أن يجيبوا إلَّا بقولهم: الله ورسوله أعلم. خشية أن يكون في قولهم تقدُّمٌ بين يدي الله ورسوله!

جاء في حديث أبي بكرة بن الحارث الثقفي- رضي الله عنه- أن النبيصلى الله عليه وسلم سأل في حجة الوداع:

" أي شهر هذا؟ " قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. فقال: "أليس ذا الحجة؟" قلنا: بلى! قال: "أي بلد هذا؟" قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. فقال: " أليس البلد الحرام؟ " قلنا: بلى! قال: "فأي يوم هذا؟ ! قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. فقال: أليس يوم النحر؟ قلنا: بلى!.. إلخ.

فهذه صورة من الأدب، ومن التحرج، ومن التقوى، التي انتهى إليها المسلمون بعد سماعهم ذلك النداء وذلك التوجيه، وتلك الإشارة إلى التقوى، تقوى الله السميع العليم.

والأدب الثاني هو أدبهم مع نبيهم في الحديث والخطاب؟ وتوقيرهم له في قلوبهم توقيراً ينعكس على نبراتهم وأصواتهم؛ ويميز شخص رسول الله بينهم، ويميز مجلسه فيهم؛ والله يدعوهم إليه بذلك النداء الحبيب؛ ويحذرهم من مخالفة ذلك التحذير الرهيب:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) [1].

يا أيها الذين آمنوا.. ليوقروا النبي الذي دعاهم إلى الإيمان.. أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون.. ليحذروا هذا المزلق الذي قد ينتهي بهم إلى حبوط أعمالهم، وهم غير شاعرين ولا عالمين، ليتقوه!.

ولقد عمل في نفوسهم ذلك النداء الحبيب، وهذا التحذير المرهوب، عمله العميق الشديد:

قال البخاري: حدثنا بسرة بن صفوان اللخمي، حدثنا نافع بن عمر، عن أبي مليكة. قال: كاد الخيران أنْ يهلكا.. أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.. رفعا أصواتهما عند النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم عليه ركب بني تميم (في السنة التاسعة من الهجرة) فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس رضي الله عنه أخي بني مجاشع (أي ليؤمره عليهم)، وأشار الآخر برجل آخر. قال نافع: لا أحفظ اسمه (في رواية أخرى أن أسمه القعقاع بن معبد) فقال: أبو بكر لعمر رضي الله عنهما ما أردت الَّا خلافي. قال: ما أردت خلافك. فارتفعت أصواتهما في ذلك. فانزل الله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) .

قال ابن الزبير رضي الله عنه: فما كان عمر رضي الله عنه يسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية حتى يستفهمه!..

وروي عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال لما نزلت هذه الآية: قلت: يا رسول الله، والله لا أكلمك إلَّا كأخي السرار (يعني كالهمس !).

وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ) وكان ثابت بن قيس بن الشماس رفيع الصوت. فقال: أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنا من أهل النار. حبط عملي. وجلس في أهله حزيناً. ففقده رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانطلق بعض القوم إليه، فقالوا له: تفقدك رسول الله صلى الله عليه وسلم، مالك؟ قال: أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي صلى الله عليه وسلم، وأجهر

---

[1] **سورة الحجرات: الآية 2.**

بالقول. حبط عملي. أنا من أهل النار. فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم، فأخبروه بما قال. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا بل هو من أهل الجنة". قال أنس رضي الله عنه: فكنا نراه يمشي بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة.

فهكذا ارتعشت قلوبهم وارتجفت تحت وقع ذلك النداء الحبيب، وذلك التحذير الرعيب؛ وهكذا تأدبوا في حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم خشية أن تحبط أعمالهم وهم لا يشعرون. ولو كانوا يشعرون لتداركوا أمرهم! ولكن هذا

المنزلق الخافي عليهم كان أخوف عليهم، فخافوه واتقوه!

ونوّه الله بتقواهم، وغضِّهم أصواتهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في تعبير عجيب:

(إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ).

فالتقوى هبة عظيمة، يختار الله لها القلوب بعد امتحان واختبار، وبعد تخليص وتمحيص، فلا يضعها في قلب إلَّا وقد تهيأ لها، وقد ثبت أنه يستحقها. والذين يغضون أصواتهم عند رسول الله قد اختبر الله قلوبهم وهيأها لتلقي تلك الهبة. هبة التقوى. وقد كتب لهم معها وبها المغفرة والأجر العظيم.

إنه الترغيب العميق، بعد التحذير المخيف. بها يربّي الله قلوب عباده المختارين، ويعدها للأمر العظيم. الذي نهض به الصدر الأول على هدى من هذه التربية ونور.

وقد روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع صوت رجلين في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم قد ارتفعت أصواتهما، فجاء فقال: أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف. فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً!.

وعرف علماء هذه الأمة وقالوا: إنه يكره رفع الصوت عند قبره صلى الله عليه وسلم كما كان يكره في حياته عليه الصلاة والسلام احتراماً له في كل حال.

ثم أشار إلى حادث وقع من وفد بني تميم حين قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في العام التاسع. الذي سمّى " عام الوفود".. لمجيء وفود العرب من كل مكان بعد فتح مكة، ودخولهم في الإسلام، وكانوا أعراباً جفاة، فنادوا من وراء حجرات أزواج النبي صلى الله عليه وسلم المطلّة على المسجد النبوي الشريف، يا محمد اخرج لنا، فكره النبي صلى الله عليه وسلم هذه

الجفوة وهذا الإزعاج، فنزل قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (4) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) .

فوصفهم الله بان أكثرهم لا يعقلون. وكرّه إليهم النداء على هذه الصفة المنافية للأدب والتوقير اللائق بشخص النبي صلى الله عليه وسلم وحرمة رسول الله القائد والمربي. وبيّن لهم الأولى والأفضل، وهو الصبر والانتظار حتى يخرج إليهم.

وحبب إليهم التوبة والإنابة، ورغَّبهم في المغفرة والرحمة. وقد وعى المسلمون هذا الأدب الرفيع، وتجاوزوا به شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كل أستاذ وعالم. لا يزعجونه حتى يخرج إليهم؟ ولا يقتحمون عليه حتى يدعوهم..

يحكى عن أبي عبيد– العالم الزاهد الراوية الثقة– أنه قال: "ما دققت باباً على عالم قط حتى يخرج في وقت خروجه"..

سورة المُجادِلة(1)

[الآية 8]

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاؤُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

في هذه الآية:

ا- أن اليهود يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم للاستماع إليه، والتعرف على أحوال المسلمين وإيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم .

2- أن اليهود لخبثهم يوهمون النبي صلى الله عليه وسلم أنهم يحبونه، ولكن الله كشفهم لرسوله فإذا بهم يدعون عليه، ويرد عليهم رسول الله الدعاء نفسه.

3- أن اليهود على علمهم برسالة النبي صلى الله عليه وسلم وقد ورد في آيات أخرى تؤكد ذلك (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ) [1] يخدعون أنفسهم فينفون عنه النبوَّة حين يطلبون العذاب السريع لدعائهم على النبي صلى الله عليه وسلم.

4- هذا التحدي (لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ) [2] يوضح عداءهم السافر لله ورسوله، وأنهم يحادون الله ورسوله فوجب عقابهم.

5- بالإضافة إلى هوانهم في الدنيا على رسول الله والمسلمين ينتظرهم عذاب جهنَّم يصلونها وهذا مصير بئيس لا مناص منه. فقد ورد أن اليهود كانوا إذا جاءوا الرسول عليه الصلاة والسلام يدفعهم سوء أصلهم وخبث نفوسهم إلى تحوير السلام وهو دعاء بالأمن والسلام من الله تعالى- إلى دعاء بالموت والهلاك فيقولون: السام عليكم. وقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم عرَّف السام بالموت في الحديث " الحبَّةُ السوداء دواء كل داء إلَّا السام، أو كما قال، فالسام الردى والموت. ولم يكن الرسول عليه الصلاة والسلام- وهو يسمع مقالتهم ويعرف مقصدهم- ليثور في وجوههم أو يشنع عليهم لأن الداعية يجب أن يكون هادئ الأعصاب، ساكن النفس! ليصل إلى قلوب الناس وأفئدتهم، والثائر يفشل في ذلك، بل كان يرد عليهم بجلال النبوة وسمو الرسالة " وعليكم "، أو كان يقول مثلهم " السام عليكم "، وأمر أصحابه الكرام فقال: "إذا سلَّم عليكم أهل الكتاب فقولوا: عليك ما قلت".

---

(1) **سورة البقرة: الآية 146.**

(2) **سورة المجادلة: الآية 8.**

وقد سمعت عائشة رضي الله عنها ما قاله اليهود الملاعين لرسول الله عليه الصلاة والسلام، فقالت– وهي الصبية المتحمسة لدينها ورسول الله وزوجها وأسوتها–: السام عليكم وفعل الله بكم وفعل،

فما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم العارف بالأمور، الذي يضعها في نصابها، إلَّا أن قال: مَه÷ يا عائشة فإن الله لا يحب الفحش والتفحش.. ما أعظمك يا رسول الله!! حتى في الرد على أعدائك الظالمين تلتزم الأخلاق ولطف الرد صلَّى الله عليك، ما أكرمك وما أَحَسنَ خلقك، فلما اعترضت الصديقة بنت الصديق: يا رسول الله ألست ترى ما يقولون؟! فقال بلهجة الواثق بالله الموقن بان ربه يدافع عنه وعن المؤمنين: ألستِ ترين أني أرد عليهم ما يقولون، أقول وعليكم"، فهم يدعون على النبي صلى الله عليه وسلم ودعاؤهم غير مستجاب لكفرهم وضلالهم، وهوصلى الله عليه وسلم يرد عليهم الدعاء، فيستجب الله تعالى لدعائه فتصيبهم اللعنة والخسران أبد الآبدين..

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يكلهم إلى الله، فعذابه العذاب الشديد، وانتقامه رهيب.. ومن يدعو عليهم؟ إنه رسول الله أحب خلق الله إلى الله صلى الله عليه وأكرمه.

بعض المسلمين اجتهدوا في رد السلام، فقال أحدهم نقول: السِّلام عليكم– بكسر السين– وهي الأحجار، وقال أحدهم بل نقول: علاك السام، أي أصابك الموت والردى، وبعضهم قال: علاك السلام فتجاوزك..

ولا حاجة لهذا الاجتهاد.. ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة و قدوة:

(وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ) (1) .

وهنا يغالط اليهود أنفسهم فيقولون: لو كان محمد صلى الله عليه وسلم نبياً، لأجاب الله دعاءه، فهو يقول راداً علينا:

"وعليكم السام"، والسام الموت.. لو كان نبياً لاستجيب دعاؤه ومتنا لساعتنا.. أليس هذا عجيباً؟! والعجب من تجرُّئهم على الله، فهم يتحدون الله تعالى ويسخرون من نبيه صلى الله عليه وسلم. وهم أيضاً يعلمون أن الأنبياء قد يغضبون فلا يعاجَل من يغضبهم بالعذاب.. ولكنهم مردوا على الكفر والفسوق فلا يأبهون إلَّا حين يدهمهم العذاب، ولات حين نجاة.. فيقول البارى جل وعلا إن لهم أجلاً لا ريب فيه وستكون النار مأواهم وبئس المرجع والمآل.

• • •

---

(1) **سورة المجادلة: الآية 8.**

سورة المُجادِلة(2)

[الآية 14- 19]

بسم الله الرحمن الرحيم

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (14) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (15) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (16) لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (17) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (18) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

* * *

المنافق: الذي يظهر غير ما يبطن كي يستفيد من المتناقضات، فهو يظهر الإسلام في قوة المسلمين لينالما ينالون من خير، ويبطن الكفر لتسلك أموره عند إخوانه من الكفار.. وتراه يغشى مجالس المسلمين ليضرب عصافير بحجر... فهو- أولاً- يجاريهم ليظنوه منهم ويأمنوا إليه و- ثانياً- يتعرف إلى ما عندهم ليوصل ما علمه إلى أعداء المسلمين ليمكروا بهم. و- ثالثاً- هو ضعيف النفس خوّار، يتستر بالكذب والدجل ليصل إلى منافع مادية إن- وجدها- عند المسلمين لا يحصل عليها بغير هذا.

فالمنافقون يتولون الكفار، ويجدون الراحة النفسية

معهم لأنهم منهم، أما مع المسلمين فمتكلفون، الصلاة ثقيلة عليهم، انتصار الإسلام يفري أكبادهم، ويقلق راحتهم فيتكلفون الابتسام وإظهار التدين وحب الله والرسول وكره الكافرين.. وهذا يزعجهم فيتحملونه مرغمين.. يندسون في صفوف المسلمين ليموّهوا على أعمالهم واسوداد قلوبهم. لكن أعمالهم تفضحهم..

فلا يستطيع الإنسان أن يملك نفسه الوقت كله وأن يواري ما في نفسه الزمن الطويل.. لا بد أن تظهر حقيقة الإنسان من فلتات لسانه ونظرات عينيه، وانتفاض جسمه، والحركة غير الإرادية، والتنفس المضطرب، وموالاة الكافرين، وعلى رأسهم أعداء الله المغضوب عليهم اليهود.. إذ كيف يوالي المسلم قوماً حادُّوا الله ورسوله وشاقوهما وأظهروا عداوتهما..

فلا يوالي أحد أحداً إلَّا إذا كان مثله من طينته نفسها فكراً، وقلباً وعملاً. (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) [1] .

وبما أن المنافق لا يستطيع التخلي عن بني عقيدته لأن قلبه الأسود معهم وعاطفته الخبيثة لا تأنس إلَّا إليهم.. فإنه يعتذر بأعذار واهية تعزز– وهو واهمٌ ظانٌّ– موقفه أو هذا ما يظن– فهو يخشى إن انقلب الوضع أن يخسر موقعه وحياته.. ويبرر علاقته الوحيدة بهم بأعذار يكشف بها– دون أن يدري– نفسه وإيمانه المتلاشي– ولا نقول إيمانه الضعيف، فهو عديم الإيمان– فلو كان يؤمن بالله حق الإيمان لعلم أن الله ينصره حين يكون قويَّ العقيدة ثابت الإيمان بها– وأنه لا يصيبه إلَّا ما قدر الله له وأن العاقبة لدين الله (فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ) [1].

قال السدي: نزلت الآية (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم ...) [2] في عبد الله بن أُبي وعبد الله بن نَبْتَل المنافقين. كان أحدهما يجالس النبي صلى الله عليه وسلم، ثم يرفع حديثه إلى يهود– فبينا النبي صلى الله عليه وسلم في حجرة من حجراته إذا قال: " يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار وينظر بعيني شيطان " فدخل عبد الله بن نبتل وكان أزرق أسمر خفيف اللحية.. فقال عليه الصلاة والسلام " علام تشتمني أنت وأصحابك؟ " فحلف بالله ما فعل ذلك. فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "فعلت " فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبوه. فنزلت هذه الآية..

ألم يقل المنافقون في سورة التوبة في رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هو أذن " نقول فيه ما نشاء ثم نحلف فيصدق.. وغاب عنهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرفهم ويعرف أنهم كاذبون– ولكنه يتركهم ليزداد إثمهم فيستحقوا النار، ولأن إبقائهم لا ضرر فيه ولو أنهم عقلوا ما كانوا مع اليهود..

مهما خدم المنافقون اليهود، وقدَّموا لهم ما يريدون ولو خرجوا من جلودهم وأعلنوا كفرهم فلم يعتبرهم اليهود منهم..

---

[1] **سورة المائدة: الآية 51.**

[1] **سورة المائدة: الآية 52.**

[2] **سورة المجادلة: الآية 14.**

فاليهود– في معتقدهم– أنهم شعب الله المختار – وأن الناس– ومنهم المنافقون حيوانات خلقها الله على هيئة بني آدم ليخدموهم.. أفلا يعقل المنافقون وضعفاء الإيمان..؟؟!!.

لذلك قال تعالى(مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ)[1] ، فالمنافقون حيث لم تخالط بشاشة الإسلام نياط قلوبهم ليسوا من المسلمين وبما أن اليهود نسيج وحدهم فهم يعتبرون المنافقين خولاً لهم وليسوا منهم..

جعل المنافقون الأيمان الكاذبة طريقاً إلى الرسول– لكنَّ الله فضحهم ولم يصدقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويحسبون أنهم يستجِنُّون بها– ويتقون القتل.. ولكن الكذب لا ينجي وإن فعل فإلى حين، حيث يظهر المستور وتنجلي الأمور.

---

[1] **سورة المجادلة: الآية 14.**

سورة المنافقون

[الآيتان 7– 8]

بسم الله الرحمن الرحيم

(هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (7) يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ).

ذكر المفسرون أنه هاتين الآيتين وما سبقهما، وما تلاهما، نزلت في كبير المنافقين عبدالله بن أبَيّ بن سلول.

قال ابن إسحاق في حديثه عن غزوة بني المصطلق سنة ست : فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم – على ماء المريسيع– وردت واردة الناس (سقاة الناس الذي يملأون الماء لهم) ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار يقال له: جهجاه بن مسعود، فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهني حليف بني عون بن الخزرج على الماء– فاقتتلا– فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار، وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين ،فغضب عبد الله بن أبي بن سلول، وعنده رهط من قومه، فيهم زيد بن أرقم، غلام حدث (صغير) فقال: أوَقَد فعلوها؟! (يوغر صدور الأنصار على المهاجرين) قد نافرونا وكاثرونا ني بلادنا. والله ما أعدُّنا (ما أحسبنا) وجلابيب قريش (وهو اسم كان المنافقون يطلقونه على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين) إلّا كما قال الأولون: سمِّنْ كلبك يأكلك !! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل (يقصد نفسَه الأعزَّ والمسلمين من المهاجرين الأذل)، (وهذه مقالة المنافق الذي لم يخالط الإيمان قلبه ولم تعرف الأخوة الإسلامية طريقها إلى نفسه).

ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم (محرضاً على المسلمين) هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم، لتحولوا إلى غير داركم (وهذا ما يقوله الكافر والمنافق في حق المسلمين فقلبه مليء بالحقد عليهم، وكره مقامهم معه).

فسمع زيد بن أرقم– فمشى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك عند فراغ رسول الله من عدوه، فاخبره الخبر (وهذا ما يجب أن يفعله كل مسلم إذا رأى ما يسيء إلى دينه وقيادته فكل مسلم لبنة في بناء هذا المجتمع، وعين تسهر على مصلحة المسلمين، ولا يتكتَّم على المغرضين ولو كانوا ذوي قربى، فالمؤمنون أقوى وشيجة وأقرب صلة بعضهم ببعض من

المنافقين، ولو كانوا من أهلهم، ولنا في إبراهيم عليه السلام أسوة حسنة حين تبرأ من والده الكافر، وأسوةٌ حسنة في نوح عليه السلام حين تبرأ من ابنه الكافر، فالعلاقة بين المسلمين تقوم على العقيدة والدين لا على الحب والطين).

وسمع ابن الخطاب ما قاله زيد بن أرقم وكان عند

رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر رضي الله عنه: مُرْ به عباد بن بشر فليقتله. فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: "فكيف يا عمر– إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟" وهذه نظرة سديدة من رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو يتحدث بنور النبوة– وكل أعماله سديدة فهو المعصوم عن الخطأ برعاية من ربه سبحانه، ولا بد أن يتكشف لبني قومه (الأنصار) نفاقه.. وإذ ذاك يسقط فلا يدفع عنه أحد ويهوي ولا يرثي له أحد..

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر فأذّن بالرحيل، وذلك في ساعة لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتحل فيها وقد مشى عبد الله بن أبي بن سلول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلّغه ما سمعه منه، فحلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به، وكان ابن أبي في قومه شريفاً عظيماً،

فقال من حضر رسولَ الله صلى الله عليه وسلم من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل (حدباً منهم على ابن سلول ودفعاً عنه).

والمنافقون هذا دأبهم كذابون يفترون بالله عز وجل، فيحلفون بالله– والعياذ بالله من حلفان الكذب– أنهم صادقون والمعروف أنهم (يَحْلِفُونَ بِاللّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ) (1) ، فقد اعتادوا على المخالفة ثم الحلف وعلى الكذب ثم الحلف!!! يظنون أنهم بذلك ينجون!! والله تعالى عرّاهم وفضحهم،

ثم انظر معي إلى قوم لا يحترمون أنفسهم فالرجل الكريم يحرص على عدم الوقوع في الخطأ وإذا أخطأ لم ينكر خطأه.. بل اعترف به واعتذر عنه وأصلحه، والرجل الكريم الشجاع إذا رأى أمراً أو قال كلاماً ثبت عليه إلى أن يظهر خلافه، أمّا أن يسرع فور انكشافه يحلف كذباً ليداري عن نفسه فهو جبان لا يستحق التقدير والاحترام.. والقوم– قومه– ينظرون إليه– إلى ابن سلول– نظر العطف والحدب لا يريدونه صغيراً في أعين الناس ولا في أعينهم ،ولكنْ ما يفعلون إن كان المنافق صغيراً في نفسه؟!!).

---

(1) **سورة التوبة: الآية 74.**

قال ابن إسحاق: فلما استقل رسول الله صلى الله عليه وسلم وسار لقيه أُسَيْدُ بن حضير (من سادة الأوس) فحياه بتحية النبوة، وسلم عليه، ثم قال: يا نبي الله، والله لقد رحتَ في ساعة منكرة، ما كنت تروح في مثلها (والرواح المسير قبيل المساء) فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أو ما بلغك ما قال صاحبكم)؟

قال: وأي صاحب يا رسول الله؟

قال: "عبد الله بن أبي".

قال: وما قال؟

قال: (زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعزُّ منها الأذل" !!! قال أسَيدٌ: فأنت يا رسول الله – والله– لتخرجنه منها إن شئت، هو – والله– الذليل وأنت العزيز، ثم قال: يا رسول الله، ارفق به. فوالله لقد جاءنا الله بك، و إن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه، فإنه يراك استلبته ملكه!.

ولئن كان ما قاله أسيد يخفف من فعلة ابن سلول مع من استلبه ملكه غير رسول الله صلى الله عليه وسلم لقلنا رجل أخذ مكان رجل فهو ينفس عليه ويراه مستلباً ملكه ،ولكنه رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يروم ملكاً ولا سيادة، إنما الله سوَّده وجعله نبياً ليبلغ رسالته إلى الناس، فهو – عليه الصلاة والسلام لا ينفس على أحد، ولا يستلب أحداً ملكَه– إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهل يرى المؤمن في رسول الله شيئاً إلَّا أن يعظمه ويبجله..

وشتان شتان ما بين نبي رسول وبين رجل يبغى ملكاً.. فلا مجال لأن يراه ابن أبي مغتصباً مكانته.. ولكنه النفاق وسواد القلب يمنع صاحبه من التصرف السديد.

ثم مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس يومهم ذاك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصَدْرَ يومهم ذلك حتى آذتُهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أنْ وجدوا مسَّ الأرض فوقعوا نياماً،

وإنما فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبي.

وهذا تصرف عظيم من قائد مُلهمٍ، فالناس يكثر فيهم القيل والقال حين يتجالسون ويرتاحون، وقد يفلت الأمر من يد رسول الله صلى الله عليه وسلم إن تنابز الناس وحملوا السلاح في وجوه بعضهم بعضاً، فشغلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بتعب المسير وسهر الليل، ومتابعة الركب، شغَلهم بحمل المتاع، وقيادة الركوب والجدّ في السرى، فلما تعبوا وشُغلوا بأنفسهم عن إثارة المشاكل ثم لامسوا الأرض ناموا عميقاً طويلاً.. فإذا مرت فترة طويلة عن ذاك الحديث الذي أثار حفيظة الناس وعاد الناس يفكرون بعقولهم لا بعواطفهم انطفأ الغضب وضاعت فرصة الشيطان في الإيقاع بين المسلمين مُهاجرهم، وأنصاريّهم وتناسى الناس ما كان).

قال ابن إسحاق: ونزلت السورة التي ذكر الله فيها المنافقين، في ابن أبَيّ، ومن كان على مثل أمره، فلما نزلت، أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذن زيد بن أرقم، ثم قال: "هذا الذي أوفى الله بأُذنه" وفي رواية إذْ أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرك أذني وضحك في وجهي فما كان يسرُّني أن لي بها الخلد في الدنيا.

(مكافأة أهداها النبي صلى الله عليه وسلم زيداً.. أمسكت يده الشريفة بأذن زيد رضي الله عنه، وعركها تحبباً، فكانت برداً وسلاماً على زيد إلى أن لقي ربه، يفخر أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم داعبه، وضاحكه وأثبت صدقه.. اللهم اجعلنا من الصادقين وثَبِّتْ إيماننا.. اللهم اجعلنا من المؤمنين..

سئل حذيفة بن اليمان صاحب سرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنافق فقال: الذي يصف الإسلام ولا يعمل به، وهم اليوم شر منهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنهم كانوا يكتمونه، وهم اليوم يظهرونه..!! هذا ما قاله صاحب رسول الله عن منافقي زمانه فماذا نقول ونحن في القرن الخامس عشر الهجري؟!!

اللهم إليك نشكو ضعفنا وهواننا على الناس. أنت رب المستضعفين أنت ربنا.. إلى مَنْ تكلنا؟ إن لم يكن بك علينا غضب فلا نبالي.. وإننا على خطا رسول الله وصحابته الكرام سائرون على رغم من نافَقَ وآذى المسلمين..).

قال ابن إسحاق: وبلغ عبدَ الله بن عبد الله بن أبَي الذي كان من أمر أبيه ما كان، فأتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم، فقال:

يا رسولَ الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي(يعني أباه) فيما بلغك عنه. فإن كنت لا بدَّ فاعلاً فمرني به، فانا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج، ما كان لها من رجل أَبرّ بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس، فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر، فادخل النار.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "بل نترفق به ونحسِنُ صحبته ما بقي معنا".

وهذا تصرُّفٌ من عبد الله الابن يلقي ضوءاً على نفسيته الإيمانية العميقة، فهو يعرف أن أباه منافق كافر.. وهذا يؤلمه ويؤذيه، ولكن لا حيلة له فيه فقد نصح أباه كثيراً، ولكن الأب ركب رأسه وأصرّ على كفره ونفاقه..

ومهما يكن فهو أبوه لا يتنصل من بُنوَّته فالإسلام أمرَ المسلمَ أن يحسن إلى والديه الكافرين.. ولكن هذا الأب يؤذي أحبَّ الناس إلى قلبه، وقلب كل مؤمن.. إنه يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلئن أمر رسول الله بقتله، لعبد الله أحق

بقتل أبيه!! لماذا؟! وهل يرضى ابن بارٌّ بوالده أن تمس أباه شوكةٌ؟!! أفيقتله بيده؟!! ولكن الابن العاقل خشي إن أمرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بقتله، فقتله مسلم من إخوانه المسلمين ثم لعب الشيطان- في حالة ضعف- في قلب عبد الله وعقله فثأر لأبيه.. خشي أن يقتل أخاه المسلم بابيه الكافر فيخسر الدنيا والآخرة.. وهو الحريص على آخرته.

وعلم ذو القلب الرحيم صلى الله عليه وسلم ما يعتمل في قلب عبد الله المسلم من عواطف متضاربة فهدّأ من روعه وقال :بل "نترفق به ونحسن إليه ما بقي معنا ".

وحين يشعر الابن أن أباه غير مقتول، وأن رسول الله رأف به رجع إلى ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم "ما بقي معنا" فليت أباه -إذن -لا يعود إلى المدينة، فليس للمنافق مكانٌ بين المؤمنين.. والمدينة مأوى الإيمان والدين، مأوى رسول الله وصحبه مهبطُ الوحي.. لا مكان للأب المنافق في هذا المكان الطاهر.. وأسرَّ في نفسه أمراً.. لن يبوح به، وسيكون مفاجأة لوالده أولاً وللمسلمين ثانياً...

قال ابن إسحاق: لما قفل الناس راجعين إلى المدينة، وقف عبد الله بن أبي بن سلول على باب المدينة، واستل سيفه، فجعل الناس يمرون عليه، فلما جاء أبوه عبد الله بن سلول قال له ابنه: وراءك! فقال: مالك؟ ويلك! فقال والله لا تجوز من هاهنا حتى يأذن لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه العزيز وأنت الذليل.

فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم- وكان يسير في مؤخرة الجيش ينظر المتخلفَ، والضال، والمحتاج إلى معونة- شكا الأب إليه ابنه، فقال الابن، والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له. فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال الابن: أما إذ أذن لك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجُزِ الآن..

(عبد الله الابن المسلم البارُّ بوالده يرى أن الإسلام أولى أن يبرّ به المسلم، فلا حرمة لكافر منافق يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم. أما ما يقول المتنطعون من أن الإسلام قطع حبال الرحم فجرّأ الابنِ على أبيه فهؤلاء، دجالون لا يعرفون من الإسلام شيئاً.. إن الله أمر المسلمين بالبرّ بآبائهم والإحسان إليهم ولو كانوا كافرين، شرط أن لا يكون هؤلاء الآباء معاول تهدم حصون الدين والعقيدة.. أمّا وهم كذلك فلا حرمة لهم فالله أولى أن نبرَّه والإسلام أولى أن نلتزمه.. وأثبت عبد الله المسلم أنه ابن بارٌّ للإسلام وهل أعظم من أبوَّة الإسلام.

أبي الإسلام لا أبَ لي سواه

إذا انتسبوا لقيس أو تميم

ولن يعود ابن أبي أبداً إلى مثل هذه المقولة، فالأرض لله يورثها عباده الصالحين، ولم تكن يوماً من الأيام ملكاً لبشر، والعزيزُ فيها من يعزّ دينَ الله، والذليل فيها من يكفر بالله، ويمكر بعباد الله.

قال ابن إسحاق: وجعل بعد ذلك إذا أحدث أبيٌّ حدثاً كان قومُه هم الذين يعاتبونه، ويأخذونه، ويعنِّفونه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين بلغه ذلك من شانهم "كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي: اقتلْه لأرْعدت (لغضبت) له آنُفٌ (أشخاص) لو أمرتها اليوم تقتله لقتلته "

قال عمر: قد والله علمتُ لأمرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمري.

(ألم أقل إنه رسول الله ولن يضيعه؟! هذا ما قاله الصديق لعمر يوم الحديبية حين ظن ابنُ الخطاب رضي الله عنهما أن المشركين نالوا فوق ما يستحقون، وأنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لانَ لهم وهم لا يستحقون ذلك.. فأثبتتِ الأيامُ فَراسة الصدّيق، وأن الرسول المؤيد يرسم اللهُ تعالى خطواته فلا يحيد عنها ولا يتعداها فيوصله ،إلى بر الأمان وإلى واحة السعادة والهناء).

لكن المنافق ذا القلب الأسود والنفس الخبيثة والمكر السيء عبد الله بن أبي بن سلول لم يلبث أن أطلق سهماً قاتلاً، كاد يصيب من الدعوة مقتلاً، ومن صاحبها مقتلاً ومن زوجته الحبيبة مقتلاً، ومن أحد أشراف أصحابه مقتلاً..

إنه حادثة الإفك التي عاش فيها المسلمون شهراً عصيباً، كان درساً كبيراً لهم.. والدعوة كلها دروس وعظة وعِبَر.

حادثة الإفك التي نفاها القرآن الكريم وأثبتَ طهرَ بيتِ النبوة في سورة النور.

سورة التحريم

[الآيات الخمس الأولى 1-5]

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (1) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (2) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (3) إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (4) عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً (5) .

عندما قدر الله تعالى أن يكون الإسلام خاتمة الرسالات السماوية، وأن يجعل منهاجه المنهاجَ الرباني الأمثل، حمَّل رسالةَ الإسلام أفضلَ رسله وخيرهم صلى الله عليه وسلم.

فكان سيدنا محمد القدوة والمثل، فهو الإنسان الكامل المعصوم، من اقتدى به وصل إلى درجة من الكمال بقدر تمثله صفاته صلى الله عليه وسلم.

ولأن هذه الرسالة خاتمة الرسالات، ولأن الرسول عليه الصلاة والسلام خاتم الرسل، وأكثرهم كمالاً، أطلعنا الله على حياته صلى الله عليه وسلم في مسجده وفي السوق وفي طريقة التعامل مع الناس مؤمنِهم وكافرِهم، برِّهم وفاجرِهم.. وصوَّر لنا دقائق حياته في بيته وخارجَه، في نهاره وليله، عباداته، وعلائقه الاجتماعية، وأوضح لنا حركاته وسكناته، غضبَه ورضاه. حزنَه وفرحه عبوسَه وابتسامه.. فكانت حياتُه ضوءاً ساطعاً لكل من له عينان وقلب وعقل..
حتى إننا نلمس من أحاديثه صلى الله عليه وسلم بأنواعها كلامَه مع الصغار والكبار، وملاطفتَه إياهم، وحياتَه مع نسائه رضوان الله عليهن..
فليس في حياته صلى الله عليه وسلم سرٌّ مخبوء أو أمر غامض، إنّه صفحة بيضاء نقية، وصور واقعية تمر أمامنا كشريط مسجل نراه ببصائرنا وأفكارنا وأرواحنا.
وفي هذه الآيات الخمس الأولى من هذه السورة تسجيل لتصرُّف إنساني واقعي يحدث في بيوتات المسلمين وغيرهم.. والحالات الإنسانية تحكم الحياة البشرية ببساطتها، بمشاكلها، وحلولِها ،بفرحها وترحها، سعادتها وإيذائها..

فإلى بيت النبي صلى الله عليه وسلم نلتقي به وبأزواجه الطاهرات لنرى القضية عن كثب.

حدثت هذه القصَّة بعد زواج النبي صلى الله عليه وسلم من زينب بنت جحش رضي الله عنها.. وقصة زواجها واضحة في القرآن الكريم، في سورة الأحزاب. وبزواجه صلى الله عليه وسلم منها رضي الله عنها أبطلت عادة جاهلية، هي عادة التبني، فقد كانت زوجاً لزيد بن ثابت حين كان يسمى قبل نزول سورة (الأحزاب) زيد بن محمد، فقال تعالى: (مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ) [1]، فكانت قصة زواجها قرآناً يتلى إلى يوم القيامة، ولعل بعض نساء النبي نفسَ عليها مكانتها فكانت هذه السورة تربية لهن خاصة، ولنساء المسلمين عامة.

ويجدر بنا أن نذكر باختصار أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فيكون الأمرُ أوضحُ والصورة أجلى.

أول أزواجه صلى الله عليه وسلم:

خديجة بنت خويلد تزوجها رسول الله وهو ابن خمس وعشرين وهي فوق الأربعين.. ماتت قبل الهجرة بثلاث سنوات، ولم يتزوج الرسول صلى الله عليه وسلم امرأة غيرها في حياتها.. ماتت وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخمسين من عمره الطاهر.

و**الثانية:** سودة بنت زمعة، كانت كبيرة السِّنِّ ليست ذاتَ جمال ،مات عنها زوجها قبل الهجرة فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم تخدمه وتقضي حوائجه ويعفُّها.

و**الثالثة:** عائشة بنت الصديق رضي الله عنه. كانت صغيرة فلم يدخل بها قبل الهجرة، بل بعدها، ولم يتزوج بكراً غيرها، وتوفي عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولمّا تتجاوز الثامنة عشَرة من عمرها.. كانت أحبَّ نسائه إليه صلى الله عليه وسلم.

الرابعة: حفصة بنت عمر رضي الله عنه، تزوجها بعد الهجرة، بأكثر من سنتين، وكانت ثيِّباً، عرضها أبوها على الصديق وعثمان رضي الله عنهما، فلم يستجيبا، وتزوجها النبي تطييباً لأبيها.

الخامسة: زينب بنت خزيمة. قتل زوجها في إحدى المعارك، وقد تكون بدراً أو أحُداً، فتزوجها رسول الله ، وتوفيت في حياته صلى الله عليه وسلم .

السادسة: أم سلمة، جُرِح زوجها في أُحدٍ ومات متأثرا بجراحه، فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وضمَّ إليه عيالها.

---

[1] **سورة الأحزاب: الآية 40.**

السابعة: زينب بنت جحش- ذكرناها سابقاً- كانت وضيئة جميلة، وهي بنت عمته، وكانت عائشة تغار منها، وتحِسُّ أنها تساميها.

الثامنة: جويريّة بنتُ الحارث، سيدِ بني المصطلق، بعد أن غزاهم النبي صلى الله عليه وسلم، وقصتها معروفة، فقد قضى عنها رسولُ الله كتابتها (مالاً يدفعه الكاتب ليعتق) وتزوجها.

التاسعة: أم حبيبة ، رملةُ بنتُ أبي سفيان، كانت مهاجرة مسلمة في الحبشة، فارتد زوجها إلى النصرانية وتركها، فخطبها الرسول صلى الله عليه وسلم، ومهرها النجاشيُّ عنه، وجاءت من هناك إلى المدينة.

العاشرة: صفية بنت حيي بن أخطب، زعيمِ بني النَّضير، وكانت لكنانة بن أبي الحقيق، قتل في خيبر، وسبيت، فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الحادية عشرة: ميمونة بنتُ الحارث، خالة خالد بن الوليد وعبد الله بن عباس.. وكانت آخر من تزوج صلى الله عليه وسلم.

فإذا قلنا: إن خديجة رضي الله عنها ماتت قبل الهجرةِ وزينبَ بنت خزيمة ماتت في المدينة في حياته صلى الله عليه وسلم عرفنا أن رسول الله توفي عن تسعِ نساء رضي الله عنهن جميعاً..

ولعلَّ الناظر في أسباب زواجه صلى الله عليه وسلم منهن يرى مِن الحكمة والأسباب الوجيهة ما يُلقم الأفاكين، -الذين رموا رسول الله صلى الله عليه وسلم، بكثرة أزواجه -الحَجَرَ. ويسكتهم،

وكثير من العلماء الأفاضل كتبوا في ذلك فأحسنوا، جزاهم الله خيراً.. ولا ننسى أن رسول الله بالإضافة إلى ذلك كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بشراً صنعه الله على عينه، وأحسن خَلْقَه وخُلقَه، ليكون القدوة للبشر فهو ليس ملاكاً، ولا يدعي ذلك، بل إن الملَك لا يكون قدوة إلَّا لأمثاله من الملائكة وكذلك سيد البشر يكون قدوة للبشر.

(قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً) [1] .

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ) [1] .

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ) [2].

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته ألَينَ الناس، وأكرم الناس، وديعاً بَسَّاماً، يعامل نساءه أفضلَ ما يعامل رجلٌ نساءه، ومع ذلك فإن النوازع البشرية جعلت نساءه يطلبن منه

---

(1) **سورة الإسراء: الآية 93.**

(1) **سورة الكهف: الآية 110.**

(2) **سورة آل عمران: الآية 144.**

زيادة في النفقة بعد كثرة المال من جرّاء الفيء، والغنائم، وكانت هناك أزمة أُسَرِية في بيت النبي انتهت بالتخيير بين التسريح والرضا بحياة التقشف مع النبي الكريم فاخترن البقاء معه صلى الله عليه وسلم.

وبما أن نساءه صلى الله عليه وسلم بشر فقد يخطئْنَ، ويتصرفْن بما ينبئ عن ذلك، ومعروف أن عائشة كانت تغار من ضراتها الوضيئات، فحين قالت في حق صفية إنها قصيرة، نبهها رسول الله إلى أنها قالت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته.

وغارت من جويرية بنت الحارث، وتمنت أن لا يراها رسول الله فإن رآها أعجبته، وهذه حاسة عند النساء واضحة.. وهكذا كان.. رآها رسول الله وأعجبته وتزوجها.

بل إن عائشة رغبت أن يظل اختيارها- حين خُيِّرَتْ نساؤه بين البقاء معه على الكفاف وبين التسريح- سراً..

ومعروفٌ ذلك، إنها تريد أن يقِلَّ عددُ نسائه ،بل تريد أن تبقى له، ويبقى لها وحدها.. إنها الطبيعة البشرية في حب التملك والاستقلال به، أما سبب نزول الآيات الأولى من سورة التحريم فملخصها:

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، ويمكث عندها فتواطأت عائشة وحفصة على أن تقول أيتهما جاءها: أكلتَ مغافير (وهو صمغ حلو الطعم كريه الرائحة) إني أجد منك ريح مغافير، قال: "لا، ولكني كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش فلن أعود له، وقد حلفتُ، لا تخبري بذلك أحداً" فهذا هو ما حرّمه على نفسه وهو حلال له، " لم تحرِّم ما أحل الله لك ".

ولم تكتم هذه التي استكمها رسول الله الخبر فأخبرت صاحبتها المتآمرة معها، فأَطْلَع الله تعالى رسول رسوله الكريم على الأمر " فعاد وأخبرها ولم يستقص الأمر، تمشياً مع أدبه الجم صلى الله عليه وسلم ، فلمس الموضوع مختصراً،

دهشت زوجتُه ، فقالتْ مَن أخبرك هذا ؟!

قال: إنه الله سبحانه " نبأني العليم الخبير " نبأه الله تعالى بكل شيء.. لكن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يشأ أن يحرجهما بذكر ما قالتاه.. وهذا يدل على أن هذه الأمور النسائية من كيدٍ وغَيرة.. تحدث من النساء كلهنَّ، برّهِنَّ وفاجرهنَّ، ولكن على درجات.

ويبدو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غضب ،فآلى أن لا يقرب نساءه شهراً، وسمع الناس أن رسول الله هَمَّ بتطليق نسائه، والإشاعات لها دور كبير في تضخيم الخبر.

ثم نزلت هذه الآيات وقد هدأ غضبه صلى الله عليه وسلم فعاد إلى نسائه.. وهاك التفصيل:

يقول الرواة إن رسول الله وطئ مارية القبطية- جاريته- في بيت حفصة، فغضبت وعَدَّتْها إهانة،

فوعدها رسول الله بتحريم مارية وحلف بهذا..فسواء كان الأمر قصة مارية، أم عسل زينب فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم غضب وكان ما كان.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن منهن. قال وكان منزلي في دار أمية بن زيد بالعوالي، فغضبت يوماً على امرأتي فإذا هي تراجعني، فأنكرت أنْ تراجعني. فقالت: ما تنكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج رسول الله ليراجعْنه، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل!

فانطلق فدخل على حفصة؟! فقال أتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم؟، قال: نعم، قال وتهجره إحداكن اليوم إلى الليل؟ قالت: نعم.

قال عمر رضي الله عنه: قد خاب من فعل ذلك منكنَّ وخسر! أفتأمن إحداكنَّ أن يغضب الله عليها لغضب رسوله، فإذا هي قد هلكت؟! لا تراجعي رسول الله ولا تسأليه شيئاً، وسليني من مالي ما بدا لك ولا يغُرَّنَّكِ أنْ كانت جارتك- يعني عائشة- هي أوسمَ (أجمل) وأحبَّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وحين علم عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلق نساءه قال: خابت حفصة وخسرت. فلما صلَّى الصبح دخل على ابنته فوجدها تبكي، فسألها أطلقكن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالت: لا أدري،

واستأذن عمر على رسول اللهصلى الله عليه وسلم عدة مرّات قبل أن يَأْذن له، فلما دخل طفق يحدثه، ويسرّي عنه، فتبسم رسول الله، وزال عنه غضبه، وسأله إن كان طلقهن فأجاب عليه الصلاة والسلام: لا...

(القصة بتصرف).

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (1) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (2) [1] .

إنه عتاب من الله مؤثر فلا يجوز لرسول الله أن يحرِّم ما أحله الله. وهذه مارية أحلها الله له، فما كان ينبغي له صلى الله عليه وسلم أن يحرمها على نفسه إرضاء لأحد. والتعقيب، "والله غفور رحيم" يوحي بأن الحرمان يستوجب المؤاخذة، لكنَّ رحمة الله ومغفرته واسعة، وهو إيحاء لطيف، فيه حبٌّ من الله ضافٍ لرسوله الكريم.

---

[1] **سورة التحريم: الآيتان 1، 2.**

والعدول عن اليمين أولى، وتحلّة اليمين معروفة فرضها الله تعالى، والله يُعيننا على ضعفنا فهو مولانا، لا يريد لنا العنت، وهو سبحانه عليم بشرعه الذي فرضه، ما يصدر عنه شيء الَّا لحكمة يريدها – سبحانه – فلا نحرِّم إلَّا ما حرم الله، ولا نحلُّ إلَّا ما أحل الله.

وبقية الآيات تصوير للحادث الذي جرى بين الزوجتين.. وما كان ينبغي أن تؤذيا نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم. بل عليهما أن تحرصا على إرضائه، وعليهما أن تتوبا إلى الله تعالى مما صنعتنا، إذ آذتا دون قصد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يجوز لهما بحال من الأحوال أن تتآلبا عليه كما تفعل الزوجات بأزواجهن فهما زوجتان للإنسان العظيم، ذي القلب الرحيم صاحب الرسالة فهل تكونان عبئاً عليه أو تكونان عنصراً مساعداً في تأديته رسالته؟

إنَّ المرأة يأتيها زوجها بعد أن كدَّ وتعب وأصابه الإعياء ليجد في كنفها الراحة والهدوء ويغسل على أعتاب بيتها إرهاقه وهمه.. فماذا يفعل إن كانت هي الأخرى عبئاً عليه؟!!

وألمح الله تعالى إلى أن رسوله عزيز عليه، لا يرضى له إلَّا أن تتوب الزوجتان و إلَّا فهو مولاه وصالح المؤمنين والملائكة.. فهو إذن تهديد مبطن إن لم يكن ظاهراً..

هذه منزلة الرسول العظيمة عند الله.. ولم لا؟ فهو رسوله وحامل شرعه إلى الناس أجمعين.

وأشد أمرٍ على المرأة أن تهدد بالطلاق إن نشزت، وأن يتزوج غيرها أحسنَ منها، وهذا التهديد يدل على وجوب اعتذار الزوجتين إليه صلى الله عليه وسلم، وقد فعلتا، وأن تتوبا إلى الله وقد تابتا، وأن تهابا العودة إلى إزعاجه وقد هابتا، وأن تحذرا أن يطلقهما ويتزوج أفضل منهما وقد حذرتا.

ورضي رسول الله صلى الله عليه وسلم،وهو أهل للرضا.. وعادت المياه إلى مجاريها وكانت هذه القصة درساً للمسلمين..

سورة الضُّحى

قيلَ: الضحى أولُ النهار، وقيلَ وقت اشتداد الحرارة، وقيل النهار كله، فهو الوضوح، وكل شيء مع الشمس واضح،

وقيل أقسم الله بالضحى الذي كلم الله فيه موسى، وحُشر فيه السحرة والناس (وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى) [1] .

وقيل في سجوِّ الليل، سكونُه وهدوءُه، وقيل الليل كله مغطى، وقيل الوقتُ الذي يقوم فيه المتعبدون. وقيل :الظلمة الواقعة.

ويًقسم الله تعالى– وهو غني سبحانه عن القسم– بمخلوقاته، والنهارُ والليل منها..

وتظهر لنا عظمته من خلال عظمة مخلوقاته، وكأنه سبحانه ينبهنا إليه مراراً وتكراراً بتعاقب الليل والنهار ويريد أن يكون نصبَ أعيننا ومِلء أفئدتنا، فلا ننساه أبداً، ويقسم ليكون أثر القسَم وجوابُه في عقولنا وقلوبنا ماثلاً واضحاً

ولماذا أقسم الجليل سبحانه؟!!

روى الترمذي عن جندب البجلي قال: كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في غار، فدميت إصبعه فقال صلى الله عليه وسلم وهل أنت إلَّا أصبع دميت.. وفي سبيل الله ما لقيت..

وأبطأ عليه جبريل فقال المشركون وُدّع محمد فقال تبارك وتعالى: " ما ودعك ربك وما قلى".

وروى الثعلبي بقية للحديث، فمكثت ليلتين أو ثلاثاً لا يقوم الليل. فقالت له أم جميل امرأة أبي لهب: – ووكانت الدعوة في أولها ولم تكن عداوة أبي لهب وزوجه قد اشتدّتْ : ما أرى شيطانك إلَّا قد تركك.. ما رأيته قربك منذ ليلتين أو ثلاث.

فنزلت الآية.. وهناك عديد من الأخبار في سبب نزول هذه السورة.

فلما نزل جبريل بهذه السورة، قال النبي صلى الله عليه وسلم " ما جئت حتى اشتقت إليك ".

قال جبريل: " وأنا كنت أشدَّ شوقاً إليك ولكني عبد مأمور".لا ينزل إلا بأمر الله.

"ما ودعك ربك وما قلى " ما أبغضك ربك مُذْ أحبك...

ما أشد شفافية هذه الجملة، إنها لتبني الصلة بين العبد وربه على أقوى ما تكون العبودية ثم الحب، الحب العميق بين خالق الأكوان وبارئها ومسيّرها.. القوة العظمى الحنون الرؤوم وبين الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم.

---

[1] **سورة طه: الآية 59.**

القوة المطلقة والجمالُ المطلق، والعظمة المطلقة، تضفي على المخلوق الحب والعطف والتأييد، وتقوّي الصلة، فيسمو هذا الإنسان إلى مقام العبودية فيكونُ أهلاً للكرم والتقريب، سبحان الله

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى) [1] أعطاه الله تعالى ألف قصر في الجنة، وفي كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم، ورضي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يدخل أحد من أهل بيته النار، ورضي أن تكون له الشفاعة في جميع المؤمنين.

عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

يُشفّعني الله في أمتي حتى يقول الله سبحانه لي: رضيتَ يا محمد؟ فأقول: يا رب رضيت.

وروى مسلم في صحيحه عن عمرو بن العاص أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله تعالى في إبراهيم(فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) [2] ، وقول عيسى (إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ) [1] ، فرفع يديه وقال: اللهم أمتي أمتي وبكى،

فقال الله تعالى لجبريل إذهب إلى محمد– وربك أعلم– فسله ما يبكيك؟ فأتى جبريل النبيَّ صلى الله عليه وسلم، فسأله فاخبره.

فقال الله تعالى لجبريل: إذهب إلى محمد فقل له: "إن الله يقول لك إنا سنرضيك في أمتك. ولا نسوءك.

وإن الله ليدَّخِر للرسول صلى الله عليه وسلم: ما يرضيه من التوفيق في الدعوة، وإزاحة العقبات، وغلبة منهج الإسلام على منهج الكفر، وظهور الحق الذي يدعو إليه.

(أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى (6) وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى (7) وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى(8)[2]

هذا رفعٌ من شان النبي صلى الله عليه وسلم، واستحضارُ جميلِ صنعِ الله، ومودتُه لرسوله الكريم، وفيضُه عليه، والإيناس الإلهي له.

انظر يا محمد صلَّى الله عليك وعلى آلك وأصحابك.. هل ودعك ربك وقلاك، حتى قبل أن يبعثك؟ ألم يحط يُتْمك برعايته؟ ألم تدرك حَيرتك هدايتُه؟

ألم يغمر فقرَك عطاؤه؟ لقد ولدت يتيماً فآواك إليه، وعطف القلوب عليك، وأعفاك بكسبك وكسب أهل بيتك عن أن تحس الفقر.

---

(1) **سورة الضحى: الآية 5.**

(2) **سورة إبراهيم: الآية 36.**

(1) **سورة المائدة: الآية 118.**

(2) **سورة الضحى: الآيات 6– 8.**

ونشأت في جاهلية جهلاء، وعقائد مضطربة فحماك من هذا المستنقع الآسن، وهداك بالأمر الذي أوحى به إليك. لقد أحسن الله إليك فجعلك نبيه ورسوله إلى الناس أجمعين، فعليك أن يكون الله قدوتك، فتساعد السائلين، وتتحدث بنعمة الله الكبرى عليك. وأولها الهداية.

(فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (9) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (10) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (11) [1] .

وهذه التوجيهات الإلهية تعليمٌ للمسلمين، ودفع لهم إلى العمل الصالح فيكفلون الأيتام ويساعدون الفقراء، ويصرفون أموالهم في سبيل الله، فيكونون في هذا المجتمع الجاهلي نوراً ساطعاً ينير الطريق للبشرية جمعاء.

---

[1] **سورة الضحى: الآيات 9- 11.**

سورة الكوثر

(*إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ* {1} فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ {2} إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ)

أمسكت بالقلم أريد أن أخط ما حواه قلبي وفكري من إيحاءات سورة الكوثر.. لكنني أحجمت عن الكتابة حين اطلعت على ما أفاض به الشهيد سيد قطب رحمه الله وأجزل مثوبته في الآخرة، وكتبه من أهل الفردوس الأعلى

فأحببت أن أنقله إلى أخي القارئ، فليس المهم أن أكتب لكنَّ الذي أريده أن يصل القارئ إلى ما عاناه رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبيل دعوته ليكون له قدوة وأسوة.

يقول سيد قطب رحمه الله وأعلى مقامَه:

هذه السورة خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، كسورة الضحى، وسورة الشرح. يُسَرِّي عنه ربه فيها، ويعده بالخير، ويوعد أعداءه بالبتر، ويوجهه إلى طريق الشكر.

ومن ثَمَّ فهي تمثل صورة من حياة الدعوة، وحياة الداعية في أول العهد بمكة. صورة من الكيد والأذى للنبي صلى الله عليه وسلم، ودعوة الله التي يبشر بها؛ وصورة من رعاية الله المباشرة لعبده وللقلة المؤمنة معه؛ ومن تثبيت الله وتطمينه وجميل وعده لنبيه ومرهوب وعيده لشانئه.

كذلك تمثل حقيقة الهدى والخير والإيمان، وحقيقة الضلال والشر والكفران.. الأولى كثرةٌ وفيضٌ وامتدادٌ. والثانية قلةٌ وانحسارٌ وانبتارٌ. وإن ظن الغافلون غير هذا وذاك..

ورد أن سفهاء قريش ممن كانوا يتابعون الرسول صلى الله عليه وسلم ودعوته بالكيد والمكر وإظهار السخرية والاستهزاء. ليصرفوا جمهرة الناس عن الاستماع للحق الذي جاءهم به من عند الله، من أمثال العاص بن وائل، وعقبة بن أبي معيط، وأبي لهب، وأبي جهل، وغيرهم، كانوا يقولون عن النبي صلى الله عليه وسلم: إنه أبتر. يشيرون بهذا إلى موت الذكور من أولاده. وقال أحدهم: دعوه فإنه سيموت بلا عقب وينتهي أمره!

وكان هذا اللون من الكيد اللئيم الصغير يجد له في البيئة العربية التي تتكاثر بالأبناء صدىً ووقعاً. وتجد هذه الوخزة الهابطة من يهش لها من أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم وشانئيه، ولعلها أوجعت قلبه الشريف ومسته بالغم أيضاً.

ومن ثم نزلت هذه السورة تمسح على قلبه صلى الله عليه وسلم بالرَّوح والندى، وتقرر حقيقة الخير الباقي الممتد الذي اختاره له ربه؛ وحقيقة الانقطاع والبتر المقدر لأعدائه.

(*إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ*)[1]..

والكوثر صيغة من الكثرة.. وهو مطلق غير محدود. يشير إلى عكس المعنى الذي أطلقه هؤلاء السفهاء.. إنا أعطيناك ما هو كثير فائض غزير. غير ممنوع ولا مبتور.. فإذا أراد أحد أن يتتبع هذا الكوثر الذي أعطاه الله لنبيه فهو واجده حيثما نظر أو تصور.

هو واجده في النبوة. في هذا الاتصال بالحق الكبير، والوجود الكبير. الوجود الذي لا وجود غيره ولا شيء في الحقيقة سواه. وماذا فقد من وجد الله؟

وهو واجده في هذا القرآن الذي نزل عليه. وسورة واحدة منه كوثر لا نهاية لكثرته، وينبوع ثرٌّ لا نهاية لفيضه وغزارته!

وهو واجده في الملأ الأعلى الذي يصلي عليه، ويصلي على من يصلي عليه في الأرض، حيث يقترن اسمه باسم الله في الأرض والسماء.

وهو واجده في سنَّته الممتدة على مدار القرون، في أرجاء الأرض. وفي الملايين بعد الملايين السائرة على أثره، وملايين الملايين من الألسنة والشفاه الهاتفة باسمه، وملايين الملايين من القلوب المحبة لسيرته وذكراه إلى يوم القيامة.

وهو واجده في الخير الكثير الذي فاض على البشرية في جميع أجيالها بسببه وعن طريقه. سواء من عرفوا هذا الخير فآمنوا به، ومن لم يعرفوه ولكنه فاض عليهم فيما فاض!

وهو واجده في مظاهر شتى، محاولةُ إحصائها ضربٌ من تقليلها وتصغيرها!

إنه الكوثر، الذي لا نهاية لفيضه، ولا إحصاء لعوارفه، ولا حد لمدلوله. ومن ثَمَّ تركه النصُّ بلا تحديد، يشمل كل ما يكثر من الخير ويزيد..

وقد وردت روايات من طرق كثيرة أن الكوثر نهر في الجنة أوتيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن ابن عباس أجاب بأن هذا النهر هو من بين الخير الكثير الذي أوتيه الرسول الكريم صلوات الله وسلامُه عليه. فهو كوثر من الكوثر! وهذا هو الأنسب في هذا السياق وفي هذه الملابسات.

(فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ) [1].

بعد توكيد هذا العطاء الكثير الفائض الكثرة، على غير ما أرجف المرجفون وقال الكائدون، وجه القرآنُ الرسولَ صلى الله عليه وسلم إلى شكر النعمة بحقها الأول. حق الإخلاص والتجرد لله في العبادة وفي الاتجاه. في الصلاة وفي ذبح النسك خالصاً لله(فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ)

---

[1] **سورة الكوثر: الآية 1.**

[1] **سورة الكوثر: الآية 2.**

غير ملق بالاً إلى شرك المشركين، وغير مشارك لهم في عبادتهم، أو في ذكر غير اسم الله على ذبائحهم.

وفي تكرار الإشارة إلى ذكر اسم الله وحده على الذبائح، وتحريم ما أُهلَّ به لغير الله، وما لم يذكر اسم الله عليه.. ما يشي بعناية هذا الدين بتلخيص الحياة كلها من عقابيل الشرك وآثاره. لا تخليص التصور والضمير وحدهما. فهو دين الوحدة بكل معنى من معانيها، وكل ظل من ظلالها؛ كما أنه دين التوحيد الخالص المجرد الواضح.

ومن ثَمَّ فهو يتتبع الشرك في كل مظاهره، وفي كل مكامنه؛ ويطارده مطاردة عنيفة دقيقة سواء استكن في الضمير، أم ظهر في العبادة، أم تسرب إلى تقاليد الحياة ،فالحياة وَحدةٌ ما ظهر منها وما بطن، والإسلام يأخذها كُلاً لا يتجزأ، ويخلصها من شوائب الشرك جميعاً، ويتجه بها إلى الله خالصة واضحة ناصعة، كما نرى في مسألة الذبائح وفي غيرها من شعائر العبادة أو تقاليد الحياة..

(إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ) [1].

في الآية الأولى قرّر أنه ليس أبتر بل هو صاحب الكوثر. وفي هذه الآية يردّ الكيد على كائديه، ويؤكد – سبحانه– أن الأبتر ليس هو محمد، إنما هم شانئوه وكارهوه.

ولقد صدق فيهم وعيد الله. فقد انقطع ذكرهم وانطوى. بينما امتدَّ ذكر محمد وعلا. ونحن نشهد اليوم مصداق هذا القول الكريم، في صورة باهرة واسعة المدى كما لم يشهده سامعوه الأولون!.

إن الإيمان والحق والخير لا يمكن أن يكون أبتر. فهو ممتد الفروع عميق الجذور. وإنما الكفر والباطل والشر هو الأبتر مهما ترعرع وزها وتجبر..

إن مقاييس الله غير مقاييس البشر. ولكن البشر ينخدعون ويغترون فيحسبون مقاييسهم هي التي تقرر حقائق الأمور! وأمامنا هذا المثل الناطق الخالد.. فأين الذين كانوا يقولون عن محمد صلى الله عليه وسلم قولتهم اللئيمة، وينالون بها من قلوب الجماهير، ويحسبون حينئذٍ أنهم قد قضوا على محمد وقطعوا عليه الطريق؟ أين هم؟ وأين ذكراهم، وأين آثارهم إلى جوار الكوثر من كل شيء، ذلك الذي أوتيه من كانوا يقولون عنه: الأبتر؟!.

إن الدعوة إلى الله والحق والخير لا يمكن أن تكون بتراء ولا أن يكون صاحبها أبتر، وكيف وهي موصولة بالله الحي الباقي الأزلي الخالد؟ إنما يبتر الكفر والباطل والشر ويبتر أهله، مهما بدا في لحظة من اللحظات أنه طويل الأجل ممتد الجذور..

وصدق الله العظيم. وكذب الكائدون الماكرون..

---

[1] **سورة الكوثر: الآية 3.**

(سورة المسد)

[الآيات 1- 5]

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2) سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ (3) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (5) .

يقول سيد قطب رحمه الله :

أبو لهب- (واسمه عبد العزى بن عبد المطلب) هو عم النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما سمي أبا لهب لإشراق وجهه، وكان هو وامرأته "أم جميل" من أشد الناس إيذاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وللدعوة التي جاء بها..

قال ابن إسحاق: "حدثني حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس قال: سمعت ربيعة بن عباد الديلي يقول: " إني لمع أبي (رجلٌ شابٌّ) أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبع القبائل، وراءه رجل أحول، وضيء الوجه ذو جَمَّة، يقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على القبيلة فيقول: "يا بني فلان. إني رسول الله إليكم آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تصدقوني وتمنعوني حتى أنفِّذ عن الله ما بعثني به " وإذا فرغ من مقالته قال الآخر من خلفه: يا بني فلان. هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزّى وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن أقمس، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تسمعوا له، ولا تتبعوه. فقلت لأبي: من هذا؟ قال: عمه أبو لهب. (ورواه الإمام أحمد والطبراني بهذا اللفظ).

فهذا نموذج من نماذج كيد أبي لهب للدعوة وللرسول صلى الله عليه وسلم ، وكانت زوجته أم جميل في عونه في هذه الحملة الدائبة الظالمة. (وهي أروى بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان).

ولقد اتخذ أبو لهب موقفه هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ اليوم الأول للدعوة..

أخرج البخاري- بإسناده- عن ابن عباس، أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج إلى البطحاء، فصعد الجبل

فنادى: "يا صباحاه" فاجتمعت إليه قريش، فقال: أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم؟ أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم. قال:" فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد". فقال أبو لهب. ألهذا جمعتنا؟ تباً لك.

فانزل الله (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)[1] إلخ.

وفي روايةٍ، فقام ينفض يديه وهو يقول: تبا لك سائرَ اليوم! ألهذا جمعتنا؟! فأنزل الله السورة.

ولما أجمع بنو هاشم بقيادة أبي طالب على حماية النبي صلى الله عليه وسلم، ولو لم يكونوا على دينه، تلبية لدافع العصبية القبلية، خرج أبو لهب على إخوانه، وحالف عليهم قريشاً، وكان معهم في الصحيفة التي كتبوها بمقاطعة بني هاشم وتجويعهم كي يسلِّموا لهم محمداً صلى الله عليه وسلم.

وكان قد خطب بنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم رقيّة وأم كلثوم لولديه قبل بعثه النبي صلى الله عليه وسلم، فلما كانت البعثة أمرهما بتطليقهما حتى يثقل كاهل محمد بهما!

وهكذا مضى هو وزوجته أم جميل يثيرانها حرباً شعواء على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى الدعوة، لا هوادة فيها ولا هدنة. وكان بيت أبي لهب قريباً من بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان الأذى أشد. وقد روي أن أم جميل كانت تحمل الشوك فتضعه في طريق النبي؛ وقيل: إن حمل الحطب كناية عن سعيها بالأذى والفتنة والوقيعة.

نزلت هذه السورة تردُّ على هذه الحرب المعلنة من أبي لهب وامرأته. وتولى الله– سبحانه– عن رسوله صلى الله عليه وسلم أمر المعركة!

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ) [1] .

والتباب الهلاك والبوار والقطع. "وتبت" الأولى دعاء. " وتب" الثانية تقرير لوقوع هذا الدعاء. ففي آية قصيرة واحدة في مطلع السورة تصدر الدعوة وتتحقق، وتنتهي المعركة ويسدل الستار!

فأما الذي يتلو آية المطلع فهو تقرير ووصف لما كان.

(مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ) [2]..

لقد تبت يداه وهلكتا وتب هو وهلك. فلم يغن عنه ماله وسعيه ولم يدفع عنه الهلاك والدمار.

(وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ)[1] ..

وستصلاها معه امرأته حالة كونها حمالة الحطب.. وحالة كونها: (فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ) [2].. والمسدُ: الليفُ تُشد هي به في النار. أو هي الحبل الذي تشد به الحطب. على المعنى الحقيقي إن كان المراد هو الشوك. أو المعنى المجازي إن كان حمل الحطب كناية عن حمل

---

[1] **سورة المسد: الآية 1.**

[1] **سورة المسد: الآية 1.**

[2] **سورة المسد: الآية 2.**

[1] **سورة المسد: الآية 4.**

الشر والسعي بالأذى والوقيعة.

وفي الأداء التعبيري للسورة تناسق دقيق ملحوظ مع موضوعها وجوها، نقتطف في بيانه سطوراً من كتاب:

"مشاهد القيامة في القرآن " نمهد بها لوقع هذه السورة في نفس أم جميل التي ذعرت لها وجن جنونها:

" أبو لهب. سيصلى ناراً ذات لهب.. وامرأته حمالة الحطب. ستصلاها وفي عنقها حبل من مسد..".

"تناسق في اللفظ، وتناسق في الصورة. فجهنم هنا نار ذات لهب. يصلاها أبو لهب! وامرأته تحمل الحطب وتلقيه في طريق محمد لإيذائه (بمعناه الحقيقي أو المجازي).. والحطب مما يوقد به اللهب. وهي تحزم الحطب بحبل. فعذابها في النار ذات اللهب أن تغل بحبل من مسد. ليتم الجزاء من جنس العمل.

وتتم الصورة بمحتوياتها البسيطة: الحطب والحبل. والنار واللهب. يصلى به أبو لهب وامرأته حمالة الحطب! "

وتناسق من لون آخر. في جرس الكلمات، مع الصوت الذي يحدثه شد أحمال الحطب وجذب العنق بحبل من مسد. اقرأ: (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ) [1] تجد في عنقها عنف الحزم والشد! الشبيه بحزم الحطب وشده. والشبيه كذلك بغل العنق وجذبه. والشبيه بجو الحنق والتهديد الشائع في السورة.

" وهكذا يلتقي تناسق الجرس الموسيقي، مع حركة العمل الصوتية، بتناسق الصور في جزئياتها المتناسقة، بتناسق الجناس اللفظي، ومراعاة النظير في التعبير، ويتسق مع جو السورة وسبب النزول.

ويتم هذا كله في خمس فقرات قصار، وفي صورة من أقصر سور القرآن ".

هذا التنسيق القوي في التعبير جعل أم جميل تحسب أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد هجاها بشعر. وبخاصة حين انتشرت هذه السورة وما تحمله من تهديد ومذمة وتصور زرِيٍ! لأم جميل خاصة. تصوير يثير السخرية من امرأة معجبة بنفسها، مدلة بحسبها ونسبها. ثم ترتسم لها هذه الصورة: (حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ) [1]! في هذا الأسلوب القوي الذي يشيع عن العرب!

---

[2] **سورة المسد: الآية 5.**

[1] **سورة المسد: الآية 1.**

قال ابن إسحاق: فذكر لي أن أم جميل حمالة الحطب حين سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن، أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد عند الكعبة، ومعه أبو بكر الصديق، وفي يدها فهر (حجر بمقدار ملء الكف). فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ترى إلَّا أبا بكر. فقالت: يا أبا بكر. أين صاحبك؟ قد بلغني أنه يهجوني. والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه. أما والله إني لشاعرة ! ثم قالت:

مذمماً عصينا وأمره أبينا

ثم انصرفت. فقال أبو بكر: يا رسول الله، أما تراها رأتك؟ فقال: ما رأتني، لقد أخذ الله ببصرها عني..

وروى الحافظ أبو بكر البزار – بإسناده– عن ابن عباس قال: لما نزلت: (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ) [1] جاءت امرأة أبي لهب، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ومعه أبو بكر. فقال له أبو بكر: لو تنحيت لا تؤذيك بشيء! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنه سيحال بيني وبينها" .. فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر، فقالت: يا أبا بكر، هجانا صاحبك. فقال أبو بكر: لا ورب هذه البَنِيَّة ما ينطق بالشعر ولا يتفوه به، فقالت: إنك لمصدق. فلمّا ولّت، قال أبو بكر: ما رأتك؟ قال:" لا. ما زال ملك يسترني حتى ولّت ".. فهكذا بلغ منها الغيظ والحمق، وظنّت السورةَ شِعراً (وكأن الهجاء لا يكون إلَّا شعراً) مما نفاه لها أبو بكر وهو صادق!

ولكن الصورة المثيرة للسخرية التي شاعت آياتها، قد سجلت في الكتاب الخالد، وسجلتها صفحات الوجود أيضاً تنطق بغضب الله وحربه لأبي لهب وامرأته، جزاء الكيد لدعوة الله ورسوله، والتباب والهلاك والسخرية جزاء الكائدين لدعوة الله في الدنيا، والنار في الآخرة جزاء وفاقاً، والذل الذي يشير إليه الحبل في الدنيا والآخرة جميعاً...

(مع بعض التصرّف)

---

[1] سورة المسد: الآية 4، 5.

[1] سورة المسد: الآية 1.

سورتا الفلق والناس

ثبت في الصحيحين قصة سحر اليهودي لبيد بن الأعصم للنبي صلى الله عليه وسلم. مفادها أن النبيصلى الله عليه وسلم كان يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء، ولا يفعله فكأن ملكين جلس أحدهما عند رأسه، والآخر عند قدميه، فاخبراه عن سحر لبيد إياه، وأعلماه صلى الله عليه وسلم بمكان السحر (في بئر من آبار يهود المدينة)

فأرسل بعض أصحابه، فأتوا بقطعة الكتان وفيها بقايا شعرات وفرق ثوب وأسنان مشط، ووتر معقود فيه إحدى عشرة عقدة، فنزلت عليه هاتان السورتان وهما إحدى عشرة آية وأَمِرَ أن يتعوذ بهما فكان كلما قرأ آية انحلت عقدة ، وهكذا انحلت العُقد كلها فكأنما نشط من عقال وجعل جبريل يرقي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول: باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر حاسد، وعين الله تشفيك..

فقالوا يا رسول الله أنقتل الخبيث فقال: " أما أنا فقد شفاني الله، وأكره أن أثير على الناس شراً".

ذكر القشيري في تفسيره أن غلاماً من اليهود كان يخدم النبي صلى الله عليه وسلم، فدست إليه اليهود، ولم يزالوا به حتى

أخذ مشاطة رأس النبي صلى الله عليه وسلم (ما يسقط من رأسه عند التمشيط) وأخذ عدة من أسنان مشطه.. وسحره اليهودي.

روى أبو هريرة قال: قال الرسول صلى الله عليه وسلم: " من عقد عقدةً ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلّق شيئاً وكِّلَ إليه "، رواه النسائي.

والسحر لا يغير من طبيعة الأشياء، ولكن يوهم الحواس والمشاعر بما يريده الساحر كما في سورة طه:

(قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (65) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى) [1] ، فهي تبقى على حقيقتها، لكنَّه الوهم الذي زرعه الساحر في نفوس المسحورين، فأثر في مشاعرهم وفق إيحائه، فأخافهم وآذاهم ووجههم الوجهة التي يريدها، ولا نعرف غير ذلك من طبيعة السحر.

فنلجأ إلى الله نستعيذ به من الساحر وسحره. ولا أظن السحر يطعن في عصمة الرسول الكريم ،فلم يكن الرسول ﷺ يفعل ما يشين الأنبياء وهو مسحور بل كان يشعر بعدم الارتياح، وأظن أن

---

[1] **سورة طه: الآيتان 65، 66.**

السحر الذي أصاب الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يدل على أنه مثلنا يتأثر بما نتأثر به ويُحِسُّ الأذى الذي يصيب الدعاة إلى الله فلنا به قدوة حسنة..

والعودة إلى الله تعالى واللجوء إليه سبحانه كفيل أن يذهب سحر الساحرين ووسوسة الموسوسين، وإيذاء أعداء الله.

روى البخاري بإسناده عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه، ثم نفث فيهما، وقرأ فيهما، قل هو الله أحد. وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات.

فلم تكن الدعوة إلى الله سهلة هينة فقد ذاق رسول الله صلى الله عليه وسلم من الإيذاء الكثير الكثير.. نسأل الله تعالى أن يجزيه خير الجزاء ويكتب له المقام المحمود الذي وعده وأن يرزقنا الفردوس الأعلى إنه هو الكريم الوهاب.

انتهى ولله الحمد والمِنّة.

فهرس الموضوعات

العنوان	رقم الصفحة